أدب الهجرة السرية: تجارب مغربية معاصرة

عبد النبي ذاكر

أستاذ بكلية الآداب والعلوم الإنسانية
جامعة ابن زهر، أكادير، المغرب

الملخص

هذه الدراسة رصد لمفاصل خطاب الهجرة السرية المغربية من خلال اليوميات والمتخيل الروائي، على خلفية تجارب الجيران الإسبان في الضفة الأخرى لمضيق المتوسط، حيث كانت تقِلُّهم قوارب الموت إلى شتى أصقاع المعمور، حتى أصبحوا شعباً لا تغرب عنه الشمس. فأين تلتقي التجربتان باعتبار أن الهجرة السرية من الناحية الفينومينولوجية تجربة كونية، ومأساة إنسانية تكاد تكوّن أبرز ملاحم العصر؟ وأية رؤية هذه التي تجعل جِراح الموت بلْسماً للحياة؟ وكيف نستخلص العبرةَ اليومَ من دروس الأمس القاسية؟ ولماذا لا يقوى سِحر الآخر على مغالبة حنين الذات، فتبقى غواية المغايرة رجِماً لانبثاق حُلم معلَّق بين السماء والأرض؟

تمهيد

شهدت العشرية الأخيرة من القرن الماضي ظهور أدب أُطلق عليه اسم: **أدب الهجرة السرية**، شكَّل مادته ونسغه من وضع إنساني لشباب وشيوخ وأطفال ونساء جعلوا المضيق (مضيق جبل طارق) قِبلتهم هروباً من حياة أضيق، مسكونين بهاجس المغادرة، يغريهم حلمُ خارجٍ أفضل، تعبيراً عن رغبة عارمة في عبورٍ محرَّم يكاد يستحيل على الجسد ولو تنازَل عن روحه مجازاً أو حقيقة.

الاهتمام بظاهرة الهجرة عموماً رصد للشتات الإنساني عبر الأقطار والقارات. وهي من الموضوعات الحساسة والمشكلات المعاصرة الآنية، ومعالجتها باتت ضرورة لازمة، أما وقد أضحت **ملحمة العصر** وميسمَه.

وما يربط أدب الهجرة السرية **بأدب الهجرة** و**أدب الخارج** عموماً و**أدب المنفى** على وجه الخصوص هي حُرقة البحث القاسي عن مكان آخر تحت سماء أخرى وراء مكان متأبٍّ وسماء عصيّة الغيث والإغاثة. والحافز الأساس لهذه الحرقة الباحثة أو البحث الحارق هو عماء **رؤية سرابية** أَوْحدية ترى في الآخر على الضفة الأخرى من الثقافة والجغرافيا بلْسم جراح الذات والوطن، حيث يكون (أول الجسد آخر البحر) وآخر البحر بداية (عودة الروح)، وحيث تصبح حياة الهناك هي الـ"حياة" والحضور، بديلاً عن حياة الهنا التي تصبح المعادل الموضوعي لـ"اللاحياة" والغياب.

أمام ضيق الداخل - مهما رَحُب - وشساعة الخارج - مهما ضاق - تصبح الغربة اختياراً يستكين للوطن في اللاوطن، ويألف الإقامة في التشرد، والانغراس في الاقتلاع، والتجذر في الانسلاخ، والتحرر في العبودية، واستكشاف الجسد في غربة الروح، ولعنة الهوية في جرح الاختلاف، تحريضاً على غواية تأمُّل الذات في مرآة الآخر.

بين الإقامة والهجرة الحارقة ينتصب حلم المغادرة وألق المغايرة في الهناك، توقاً لتجنب الوضع الصعب في الهنا باعتباره سجناً كبيراً ومرتعاً للخيبة واليأس والتهميش والاستهداف والتعسف والشقاء والمعاناة والألم والخذلان

والفقد والمرارة,. وباعتبار الهناك فسحة أمل وأمان وسعادة وعيش كريم، وموئلاً لتحقيق أشواق مجهضة في الآن والهنا.

هكذا صار للهجرة السرية أدب، وللأدب منافذ سرية أخرى لاستغوار دهاليز إنسانية الإنسان في زمن عولمة تُحكِم الطوق على الأحلام، وتزرع الوهم هنا ليُحصد الخوف هناك.

1 - للهجرة السرية أدب

أبى القرن الماضي إلا أن يغادرنا تاركاً بين أيدينا ملحمة العصر: جمرة تجربة أونطولوجية شبابية غير معهودة في السِّجِلّ الأدبي الوطني بالمغرب؛ تلك هي تجربة **الهجرة السرية** لجيل أدبي جديد سرعان ما حفز مخيال الجيل السابق وهمّته، حتى أضحت "الهجرة السرية" من علامات الساعة التي نحياها. الشيء الذي أفرز لنا نصوصاً أدبية جديدة ومتنوعة لغةً وأسلوباً وتجنيساً: (سيرة ذاتية، رواية، أقصوصة، سيناريو، مسرح، رواية بوليسية، رواية سياسية، سيرة، يوميات، محكيات، مذكرات، ديوان شعر.. إلخ)[1]. وهكذا، اغتنت الساحة الثقافية بأسماء جديدة حفرت لنفسها مجراها الثابت في عالم الكتابة الفنية الملسوعة بلظى تجارب حياتية قاسية، تغوص عميقاً في أغوار الألم، لتقبض على وميض أَمَل خُلَّب، جعل الموت بديلاً قسرياً للحياة. وتحت طائل الرغبة المستبدة العارمة في العبور إلى الآخر، تهوي الذات غارقة في بحر المنافي.. مَقبرة الذكريات الجريحة.

حين يتمرأى الموت إكسير حياة، لا أحد يتصور أن المضيق سيتحول إلى مقبرة من ماء وزبَد تتسع لجنون الرحيل، وتضيق بفسحة أمل في رتق مسافة الزمكان.

ولعل الأسماء التي نصادفها في هذا الإطار، تعتبر تنويعات جمالية لتجربة وجودية تُجَلِّلها صور الموت، وبلاغة القبح والألم والخوف وأعطاب السفر والقنوط من رحمة وطنٍ غير مواطِن. وهي أسماء تركت صدى لافتاً، إن على مستوى ترجمة نصوصها إلى عدة لغات، أو على مستوى ابتهاج النقد بها. فمنها

ما جعل تجربة الهجرة السرية موضوعة أساسية لبناء الحكي وشعْرنة السرد وسَرْدَنة الشعر ومسْرحة الدراما، ومنها ما جعلها موضوعة ثانوية جاءت ذريعة من بين أخرى للنقد والفضح وتعرية الهشاشة في واقع آيل للسقوط والتفسخ.

نذكر من هؤلاء الكتاب الذين صاغوا ملحمة العصر، وحولوا أراضي المنفى إلى وطن للكتابة وتوطين الروح: يوسف أمين العلمي في روايته: (Les Clandestins)، والماحي بينبين في روايته: (Cannibales)، ومحمد ترياح في روايته: (Les «Harrragas» ou Les barques de La Mort)، وموحا سواكَ في مجموعته القصصية: (Le Grand Départ)، وسليم جاي في رواية: (Tu ne traverseras pas le détroit)، ورشيد نيني في: (يوميات مهاجر سري)، وعبدالجليل الروسي في: (طيور الهجرة)، ومحمد عز الدين التازي في: (أيها الرائي) و(كائنات محتملة)، وبنسالم حميش في: (سماسرة السراب)، وعبدالسلام الفزازي في: (أحلام هاربة)، والطاهر بن جلون في (الرحيل) (Partir)، وحميد لشهب في(حفريات مهاجر)، وجعفر أحمد البديعي في: (قوارب الهجرة)، وصابر بوغانم في (زفرات الغربة: ذاكرة مهاجر)، ومليكة مزان في: جنيف التيه الآخر.(ديوان)، وأحمد أبابري في: (من البحر إلى البحر) و(الزمن الأعمى) و(لقاء في إسبانيا) و(الذاكرة والصمت...وأشياء أخرى: سيرة ذاتية)، وعبد الحي المودن في (فراق في طنجة)، وعمر والقاضي في: (البرزخ) و(الطائر في العنق)، وحميد لشهب في: (ثماني عشرة سنة دراسية مهربة عن طريق البحر)، ومصطفى شعبان في (أمواج الروح) و(سيرة مهاجر سري في باريس)، ومصطفى أدمين في: (قصة معلم انحرف مركبه)، وإدريس اليزامي في: (جنة الطوارق)، ومحمد عطاف في: (أخطاء لا تقتل)، وعبد الإله الحمدوشي في: (الذبابة البيضاء)، ويوسف فاضل في: (حشيش)، وحسين الطاهري في: (الرقص على الماء)، ووريد الموساوي في: (الحقيقة المختبئة)، وجلول قاسمي في: (سوانح الصمت والسراب)، ومحمد فاهي في: (حكاية صفراء لقمر النسيان)، وأحمد الجلالي في: (الحراكَة: الموت لمواجهة الحياة وحكيات من صميم الواقع) وعبد الكريم الجويطي في: (زهرة الموريلا

الصفراء: رحلة مغربية في قوارب الموت)، والميلودي شغموم في: (أريانة)، والمتقي أشهبار في: (انتحار المُبْعَدين)، وعزيز الركَراكَي في: (نساء الحب الأزرق)، إلخ.

ومعلوم أن تجربة الهجرة السرية - باعتبارها مأساة إنسانية حقيقية ومواجهة درامية للموت أملاً في الحياة - ليست حكراً على المغرب، فهناك تجارب أدبية عالمية سابقة ينبغي قراءة الأعمال المغربية في سياقها الكوني؛ الشيء الذي يجعلنا نتحدث اليوم - دون مركَّب نقص - عن عالمية التجربة المتَّصلة بغواية الهجرة السرية نحو عالم فردوسي سرابي طوباوي: الغرب. وهنا نتساءل: ما الذي يميز التجربة المغربية عن غيرها في هذا المجال؟ وما القواسم المشتركة التي تربطها وجدانياً وتخييلياً بالتجارب الإنسانية الكونية الأخرى؟ ومن منا - شرقاً وغرباً - من لا تتضمن شجرة نسبه فرداً أو جماعة لهما صلة بفعل الهجرة سرية كانت أم غير سرية، قسرية أم إرادية؟

وهنا يحق لنا أن نتساءل: هل ما تضمنه المواثيق والمعاهدات الدولية من حرية الأشخاص عموماً وما تكفله لهم من حرية التنقل على وجه الخصوص شيء له ما يوازيه على أرض الواقع؟ وهل للموانع السياسية والاقتصادية والجغرافية وغيرها من الذرائع دور في تذويب هذا الحق المشروع لبني البشر؟

وهل استطاعت هذه الترسنة الجهنمية من العراقيل والعوائق والحواجز الحيلولة دون تدفق الأجساد والأحلام إلى "الهناك"، ضداً على الخيبات والقساوات والمآسي في "الهنا"، وما يتربص بتلك الأجساد والأحلام من إهانة واستغلال وتحرش وتعسف وخوف ومراقبة وتهميش ومشكلات صحية وعنف وسياسات أوروبية في إغلاق الحدود بسنّ قوانين تحارب الهجرة السرية، وتجرّم المهاجر السري وتتصدى له حياً أو ميتاً؟

2 - لعنة الهروب، ما أشبه يومنا بأمسهم!

هم أيضاً يهربون.. يفرون من شيء ما.. يحققون أحلامهم الإنسانية في العبور والمغادرة. وبالأمس القريب سمعنا عن عمليات التسلل الجماعية المكثفة

لعبور نفَق المانش من فرنسا إلى بريطانيا. ليس هذا وحسب، فقد عرفت شعوب القارة الأوروبية لعنة الهروب أوالهجرة السرية بشكل نشيط منذ القرن الخامس عشر للميلاد لتطبع القرنين التاسع عشر والعشرين، فقد "هاجر أكثر من خمسين مليون أوروبي من بلدانهم الأصلية ما بين 1815 و1930 في حركة غير مسبوقة في الزمان ولا في المكان"[2]. ومن بين المهاجرين السريين إلى أمريكا في العقود الثلاثة الأخيرة من القرن التاسع عشر البريطانيون والإيطاليون والألمان والهنغاريون والبرتغاليون والهولنديون والنرويجيون والسويسريون والدانماركيون والفرنسيون علاوة على الإسبان[3]. وبلغة الإحصاء مرة أخرى، لا تزال إسبانيا – لحد الآن – هي بلد مُصدِّر للهجرة أكثر من كونها بلداً مستقبِلاً لها[4].

وجاءت في أيامنا رياح العولمة فعوْلمتِ الهجرة، وصيّرت سفر الجنوبيين حرقاً، وحرْق الشماليين سفراً. وفي عصر العولمة هذا نادراً ما يشار بأصبع الاتهام إلى حركة جحافل الأعمال والاستثمار من الشمال إلى الجنوب. ولئن سمي الأول **سفراً**[5]، فإن الحركة العكسية من الجنوب إلى الشمال تسمى "هجرة" و"لجوءاً اقتصادياً" و"ظاهرة" مدعاة لقلق وأرق الغرب الذي تفتقت عبقريته عن سن قوانين وخط برامج، واختلاق مخططات لمجابهة الجنوبيين "المجانين" الذين يلقون بأنفسهم في عرض البحر، بعيداً عن – وضداً على – أسطورة "التنمية المشتركة" التي لا تنهض على أسس الشراكة العادلة والمتكافئة التي لا تفسد للاختلاف قضية في ضوء خصوصيات الهوية والخيارات الإستراتيجية المتاحة والممكنة.

3 – الجسد بداية الاستكشاف ومنتهاه: من الاستبعاد إلى الاستعباد

3 – 1 – الإسبان في قوارب الموت ونفق العبودية

بات من الضروري الحفر في تاريخ العلاقات المغاربية الإسبانية لاستكشاف قسمات جغرافية الروح في منافي الغربة، والذاتُ على مرمى حجر من الآخر في الاتجاهين المتعاكسين معاً.

في البدء كانت هجرة تحت الظل: هجرة اللجوء السياسي

والاقتصادي، حتى أضحى الإسبانيون (شعباً لا تغرب عنه الشمس)، على حد التعبير الساخر الذي جللهم لقرون طويلة؛ فقد عاشوا فترات الشتات في كل القارات: (أوروبا، أمريكا، أستراليا، إفريقيا، آسيا)[6]. وهذه الجحافل من المهاجرين السريين الإسبان هي ما أطلق عليه إرنيست كيلي ذات يوم اسم: "سود أوروبا"[7]؛ أي عبيدها.

بدأت هجرة المثقفين الإسبان في القرن السادس عشر واستمرت إلى غاية القرن التاسع عشر[8].

وسواء أكانت هجرتهم السرية - وغيرها - طوعية أم قسرية، فقد كانت هي الأخرى رحلة بحث مضنية عن الفردوس المفقود، والحلم الموعود، في كل أصقاع المعمور: الأمريكتين والمكسيك وكوبا وكولومبيا وجمهورية الدومينكان والبيرو وباناما والأرجنتين والأورغواي والشرق الأوسط وفرنسا وبلجيكا وإيطاليا والنرويج والسويد والدنمارك[9] واليونان وفلندة وإيرلندة وتركيا والبرتغال واللوكسمبورغ والنمسا وهاواي والبرازيل وفنزويلّا، التي دخلها حوالي 56 بالمائة من المهاجرين الإسبان، فأدى ذلك إلى احتجاج الفنزويليين على العمال الأجانب[10]. كما قصدوا بعض الدول الإفريقية: شمال إفريقيا مثلاً كالجزائر[11] وتونس والمغرب[12].

وإلى عهد قريب كان وضع الإنسان الإسباني مقلِقاً، بسبب سياسة الرئيس فرانكو. فقد تحدث رشيد نيني في يومياته عن ميغل، الذي بمجرد ما وُلِد في إقليم الباسك هاجر به والداه إلى بوينس أيرس ليقضي هناك ثلاثين سنة: "بسبب الجوع كان الإسبان يفرون إلى كل الدول التي بها أكل. يبدو أن فرانكو كان يلتهم كل شيء بمفرده."[13] وشبيه بهذا الوضع ما سبق أن حكاه فرانسيسكو مورينو غالفان Francesco Moreno Galvin في إحدى رسائله: "كلنا هربنا، هاجرنا كطيور تائهة؛ لأن هناك لا يوجد خبز..هربنا..جماعات تلو أخرى..تاركين أرضاً خراباً.. وحتى الكلاب هربت.."[14].

وقد أبانت الرسائل والشهادات، وكذا المعالجة الصحفية لظاهرة الهجرة السرية عن ظروف قاسية وبئيسة للمهاجر السري الإسباني، حيث "كان العنف

معمولاً به على متن البواخر من طرف الربابنة؛ العنف بجميع أشكاله: الجسدي والنفسي. . . وقد استمرت هذه الممارسات المتخلفة والدنيئة خلال القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين"[15]. وحيث كان لهم بالمرصاد الميز العنصري والأنانية والقسوة[16] وشظف العيش والتشييء غير الإنساني والمتاجرة في الأرواح واستغلال اللّحم البشري والمعاناة الاجتماعية القاسية في فضاءاتهم الطوباوية المقصودة: ضفاف الأمل والحلم الخُلَّب والخلاص الأبدي والكرامة الحقيقية الموعودة التي تحولت إلى تخوم للألم، وحواجز للمحاصرة والمطاردة والاعتقال والموت.

الجارة إسبانيا – التي هي على مرمى حجر – من المغرب، كانت إلى عهد قريب وكر الهجرة السرية إلى الأمريكتين، في ظروف قاسية جداً نظراً لعامل البُعد، وقد شملت القساوة المرأة والطفل والرضيع والحامل والمريض والمسِنّ.

عرف الإسبان – قبل المغاربة – ظاهرة "قوارب الموت" Espa7oles en patera، وتحدثت صحفهم عن الإسبان الذين يهربون من إسبانيا Espa7oles fuera de Espa7a فراراً من شيء ما.

في الليل كان يتم التسلل إلى الباخرة – وأحياناً كثيرة إلى مراكب لنقل البضائع[17] – عن طريق قوارب صغيرة غير آمنة. بالليل كانوا يلوذون بالفرار، وخاصة في فصل الخريف حيث تكثر العواصف الرعدية[18].

أما إجراءات السفر، فكانت "تنجز في ظروف غير مريحة: ضياع الوقت، ساعات من الانتظار، قضاء ليال بأكملها في الشارع"[19].

كانت هجرة الإسبان وجيرانهم البرتغاليين بحثاً عن العمل بثمن زهيد يرفقه حقد ومهانة واحتقار وغربة لسان ولا تسامح واستغلال وهضم كرامة وتزوير جوازات السفر وعقود العمل. ولا يزال الشعر الباسكي يحفظ معاناة المهاجرين السريين الباسكيين على ظهر السفن والبواخر التي كانت تقلهم خلال القرن التاسع عشر إلى أمريكا، حيث كانوا عرضة للخُدَع والاستغلال

والتحرشات والمقالب وشظف العيش والجوع وتضييق حرية التجول، فقد كانوا يكتفون لعدة أيام بشربات باردة بالثوم[20]. علاوة على التكاليف الباهظة للهجرة التي تجعلهم يرضخون في البلد المستقبل لما يشبه العبودية التامة.

وصف القنصل الإسباني في "مونتي فيديو" وضعية المهاجرين الإسبان سنة 1852م قائلاً: "لا يتعامل هذا المشغِّل مع المهاجرين المختارين بالطريقة التي يجب أن يتعالم بها إنسان مع إنسان آخر، إذ لا يؤدي له كل حقوقه، فقط يتفق هو والوسيط عن الكيفية التي يجب أن يؤدي بها المهاجر تكلفة سفره، سواء في دفعة واحدة، دفعتين أو ثلاث دفعات، وهكذا يتمكن المشغِّل الجشع من أن يحتفظ بالمهاجر أو المهاجرين أطول مدة ممكنة، سنتين، ثلاثاً، أو أكثر، حيث يمنح المشغل للوسيط كل حقوقه، ليظل المهاجر المسكين بين يديه كالعبد، إذ لا يمكن أن يتحرك إلا بأوامر سيده الجديد، بعد أن يكون المهاجر قد تخلص من السيد الأول الذي قام بتهجيره من بلاده"[21].

وهذا ما جعل البعض يتحدث عن "رقيق أوروبا": Los negros de Europa.[22] "فالعديد من المهاجرين يجدون أنفسهم مضطرين للعمل في أماكن محددة، وفي زمن محدد، حتى يستطيعوا أن يؤدوا ديون السفر، وقد كان حوالي نصف المهاجرين يخضعون لهذه الوضعية في (مونتي فيديو) في سنتي 1842-1843م" والغريب أن هذه الوضعية كانت مقبولة من قِبل سلطات الأوراغواي[23]. هذا إذا وصل المهاجر حياً؛ فمثلاً في نهاية سنة 1868م غرقت في جزيرة "لوبوس" بالأوراغواي مركبة كانت تقل مائتي مهاجر باسكي فمات الركاب جميعاً[24]. وقبل هذا التاريخ بعشر سنوات قصّ مهاجر سري باتجاه "بوينوس أيرس" سنة 1858م رفقة 280 مهاجراً إسبانياً قصة العبور كالآتي: "كانوا مكدسين بعضهم فوق بعض كسلع مهربة في مساحة ضيقة على الباخرة... المضحك أنه كلما ارتفعت الأمواج أكثر من اللازم، يتسرب الماء ليبلل الأسِرّة، والأحرى أن نقول خرق بالية موضوعة بطرق عشوائية على ألواح خشبية متسخة، كل واحدة (ينام) عليها حوالي عشرة إلى اثني عشر مهاجراً..

أما في ما يخص الأكل "القليل والسيئ"، فلا يتجاوز سردينة واحدة غير

طازجة لكل مهاجر وعلبة بلاستيكية من النبيذ السيئ كفطور. أما في وسط النهار، فتقدم حصة صغيرة من الخضر لكل 12 مهاجراً، وفي وجبة العشاء تقدم من جديد حفنة من الخضر "[25].

كما وردت الأخبار كيف كان يتم تكديس حوالي مائتي مهاجر في باخرة لا يتعدى قطرها أربعين قدماً، وعرضها 22، وطولها سبعة أمتار، وكيف كان يتم خداع المهربين لأكوام "البشر" المكدسة في باخرة لا تسَعهم[26].

هذه شهادات واعترافات إسبانيين عن ظروف هجرتهم السرية الطافحة بالحزن والقسوة والألم. ولربما أنعش هذا ذاكرة حفدة سيربانتيس، فحملهم على تفهّم وضعية جيرانهم "الموروس" في الضفة الأخرى من حوض البحر الأبيض المتوسط، ولربما تذكروا غرقى وادي "بيداسوا" عند الحدود الفرنسية، حيث كانوا يحاولون ليلاً التسلل سباحة إلى الضفة الأوروبية، حيث تبدأ "الجنة الفرنسية" "أرض الميعاد" Los Paraisos possibles كما يقولون[27]. فالوصول إلى أمريكا مثلاً كان حلماً؛ "كانوا يتخيلون أمريكا غنية، بل غنية جداً، وتتوفر على فائض في كل شيء، وهذا لعمري هو الحلم الأبدي لكل مهاجر في كل زمان ومكان"[28]، على حد قول لوركا بوس كارلوس Llorca Baus Carlos. لكن عند العتبة كان يترصدهم: التعسف، التحرش، الإهانة، المرض، الأمية، الأجر المتدنّي، ظروف السكن والسفر، غياب الحماية القانونية الجدية؛ لأنهم غير قانونيين وغير شرعيين.

في 25 ماي من سنة 1949م وصل مهاجرون سريون إسبان إلى ميناءٍ فينزويلّي، وقد وصف توماس باربرولو بيومية "البايس" هذه الواقعة على النحو الآتي: "وصل مركب شراعي غير متوازن محمّلاً بـ106 من المهاجرين السريين أو (الحراكَة). من بين هؤلاء المهاجرين غير القانونيين، توجد عشر نساء وطفلة صغيرة لا يتجاوز عمرها أربع سنوات، كان الكل يوجد في حالة يرثى لها؛ مهاجرون متّسخون، لباسهم عبارة عن خِرَق بالية وممزقة، يتضورون جوعاً، ويموتون عطشاً.

فهذا القارب الشراعي المتآكل، والذي لا يتجاوز طوله 19 متراً، يشبه حفرة مليئة بالقيء، تخرج منه رائحة جد كريهة وغير محتملة "[29].

بدأت هذه القصة على النحو الآتي: "قبل التسلل إلى الزوارق، كان المهاجرون السريون الإسبان يختفون عدة أيام في مساكن خاصة... أحد منظمي الهجرة السرية الإسبانية صرح بأنه كان يؤوي في منزله أكثر من عشرين مهاجراً سرياً...عندما تسللوا إلى المركب الشراعي سمعوا طلقتين اثنتين للحرس المدني، ورأوا سفينة دورية للشرطة تقترب منهم فهربوا بكل سرعة، ناشرين كل أشرعتهم، وصوت دورية الشرطة المدنية يقول بمكبر الصوت: (باسْم إسبانيا، توقفوا وعودوا...) يجيبهم صوت سري مجهول خرج من أعماق الليل، بعد أن ابتعد المركب، (فلْتعُد أُمُّك)"[30].

في الباخرة كانوا "يجمعون بين الشباب والشيوخ والأطفال، أما النساء فلا يفصل بينهن وبين الرجال والشباب إلا لوح رقيق من الخشب. الشيء الذي يجعلهن يتعرضن دوماً للنظرات الشرسة للرجال والشباب. وهذه الطريقة في السكن والنوم، تساعد على أن تكون هذه الأماكن أكثر اتساخاً وعفونة، مما يؤدي طبعاً إلى كثرة الحشرات على اختلاف أشكالها وأحجامها"[31]. وبحسب ل. ب. كارلوس Llorca Baus Carlos دائماً "كان يُؤخذ على هذه المراكب والبواخر العتيقة قِلّة التهوية، ضيق الفضاءات، غياب أَسِرَّة خاصة بالنساء الحوامل وبالأطفال الصغار، فضلاً عن الشروط غير الإنسانية لما يسمى بأماكن التطبيب في أغلبية البواخر المخصصة لنقل المهاجرين، حيث يتم تكديس المرضى إلى جانب الأصحاء، إضافة إلى قلة الأدوية، وغياب وسائل التطبيب والجراحة، وضعف الشروط الصحية في أماكن الغسل والنظافة... وعلى العموم لا تتم تغذية المهاجرين إلا بواسطة البضائع القديمة، وغالباً ما تكون غير صالحة ...وكانت الأجنحة الخاصة بالمهاجرين الإسبان عبارة عن أكواخ متنقلة تفتقر لكل وسائل الراحة الضرورية. أما الكماليات، فتظل عبارة عن أحلام لا يمكن تحقيقها إلا في المنام، بل تصعب حتى في المنام، لأنه لا الأماكن المخصصة للنوم ولا الأغطية ولا الجو العام لمكان النوم يساعد على ذلك،

الأمر الذي يجعل الأحلام بعيدة المنال بل عبارة عن كوابيس تقضّ مضجع المهاجرين "[32].

استغرقت الرحلة ستة وثلاثين يوما لاجتياز الأطلنطي، كان المهاجرون السريون يتغذون طيلتها على البطاطس المتعفنة والحمص المسوس ودقيق الذرة الفاسد، أما الماء فكان يوزع بالتقتير، وهو في غالبيته لا يصلح للشرب. وقد كتب غونسالو مورالس كتاباً حول هذا الحادث ذكر فيه أنهم كانوا يقضون اليوم في بهو المركب ممدّدين ومتراصّين كأنهم في علبة سردين، لا يتمكنون حتى من القيام بنصف دورة، يقضون حاجتهم البيولوجية خلف بعض الألواح. ولذلك كان المركب الشراعي نَتِناً جداً كشرج الطيور في حديقة الحيوان[33].

بحسب إحدى قصاصات (البابِس) كانت معاناة المهاجرين السريين الإسبان كبيرة نفسياً ومادياً: "كانوا يتقيؤون على بعضهم البعض، وبعد ذلك ينتشر القمل في أجسادهم وملابسهم التي أصبحت كخِرَق المتسوِّلين بسبب حامض القيء وملح البحر. . "[34].

وبحسب ما أورده غريغوريو مارانون Gregorio Maranon، يقول أحد المهاجرين الإسبان إلى الأرجنتين: "عندما كنا نصل إلى هناك، نصطدم بالواقع المر ونعاني من خيبة أمل كبيرة وكبيرة جداً، لأنهم يُسْكِنوننا في أماكن غير آمنة ومتسخة، وعندما كنا نذهب للقنصلية الإسبانية التي كانت هناك، يقولون لنا بأنه: تمّت مقايضتنا بـ 800 كيلو من القهوة "[35].

لقد كانت بنية الاستقبال بالبلد المهاجر إليه هشّة جداً، كما يوحي بذلك وصف (فندق المهاجرين) ببوينوس أيريس بالأرجنتين: "هذا الفندق لم يكن يحتوي على أفرشة أو أغطية، إذ كان على المهاجر أن يتدبر أمره بنفسه؛ لأن أصحاب الفندق يعتقدون أن هؤلاء المهاجرين غالباً ما يكونون متعودين على النوم على الأرض. . . ويتولى المهاجرون بأنفسهم غسل الأواني بعد كل وجبة، كما يقومون بتنظيف مرافق الفندق، ويتكلفون أيضاً بحمل المواد الغذائية المبعوثة للفندق "[36]. ليتم في نهاية المطاف إيواؤهم في أكواخ وبراريك أو

"مساكن غير مكتملة البناء أو مبنية بشكل سيئ ورديء، مساكن تفتقر لكل مرافق الحياة العادية والنظيفة" [37].

وفي شهادة لأحد المهاجرين نقرأ: "نحن ثمانية أفراد نسكن في غرفة متسخة ذات أفرشة رديئة جداً، لا يوجد وقت ثالث عندنا. فعندما لا نذهب للشغل، يجب أن نقوم بعمليات الغسل والتنظيف والطبخ والكتابة للأسرة، فنحن نعمل في بعض الأحيان ما بين 14 و15 ساعة في اليوم، ويمكن أن نقوم بساعات إضافية، ولا يوجد في قاموسنا يوم اسمه الأحد" [38].

ومنهم من كان يسكن في أكواخ خشبية وخيام في حالة لا إنسانية أو في مراكب قديمة لم تعد صالحة للإبحار، ويفرض عليهم المشغِّلون: تحديد وقت الزيارات، منع دخول الزوار، عدم التأخير في الدخول ليلاً، عدم الطبخ في الأكواخ[39].

في سنة 1961م تحدثت الصحافة الإسبانية عن قرار السلطات الألمانية "بمنع العمال الأجانب تغيير مكان عملهم بدون موافقة مشغليهم. وفي حالة الرفض، على العامل الأجنبي إما أن يستمر في عمله الأصلي بدون مناقشة أو يعود لبلده" [40].

ويبدو أن عناصر التضييق والخنق التي عاناها المهاجر السري الإسباني في البلاد المستقبِلة لم يفرخ سوى النتيجة الحتمية لكل رفض: إنها العزلة وعسر الاندماج، كما جاء على لسان مهاجر إسباني عائد سنة 1984م: "كل شيء هناك ممل، الأيام تكون طويلة ورتيبة، متشابهة وباردة، فقليلاً ما نرى الشمس" [41].

3 – 2 – مهاجرون سريون إسبان في الجزائر والمغرب

كانت الحكومة الفرنسية يومها تعامل المهاجرين الإسبان إلى الجزائر كعمال مؤقتين أو موسميين في الفلاحة والبناء والملاحة بكثير من الاستغلال مما يضطرهم إلى السماح في حقوقهم ولا يتمتعون بالمساعدة القضائية[42]. يسكنون في البراريك، ومساكن جماعية، وبيوت من قصب، ويعانون كل أشكال الاضطهاد والحرمان[43]. و"غالباً ما يتم ابتزازهم، فلا يحصلون على أجورهم،

مما يضطرهم إلى العمل الإجباري والاستدانة من خلال الأكل والشرب بالسلف في الحانات، التي تكون غالباً في ملك مشغليهم "[44].

أما الهجرة الإسبانية إلى المغرب، فكانت سرية ودون عقد عمل، شملت البحارة والتجار الصغار والفلاحين والعمال.

وكانت نقط الجذب في الهجرة الإسبانية إلى المغرب مدن: طنجة، تطوان، الدار البيضاء، الرباط، الجديدة، العرائش. أما في الجزائر فأهم مدن استقطاب الهجرة الإسبانية هي: وهران، قسنطينة، الجزائر.

وكانت ظروف المهاجرين الإسبان في المغرب والجزائر خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر والنصف الأول من القرن العشرين، لا تختلف في شيء عن ظروف المهاجرين المغاربيين إلى إسبانيا اليوم[45].

إذن، في البدء كانت الهجرة إسبانية، وكانت البلاد المغاربية مستقبِلة[46]. ثم اتجهت في الستينيات والسبعينيات باتجاه أوروبا الغربية.

ما أشبه يومنا بأمسهم! "إن ظروف ومميزات وحقوق المهاجرين الإسبان في شمال إفريقيا في النصف الثاني من القرن التاسع عشر والنصف الأول من القرن العشرين لا تختلف عن ظروف ومميزات وحقوق المهاجرين المغاربة في إسبانيا في العقد الأخير من القرن العشرين، على الأقل في ثوابتها العامة "[47].

4 – دورة الهجرة إلى الموت: مغاربة في قوارب الموت

عقب موت فرانكو تَم الانخراط في السوق الأوروبية المشتركة سنة 1986م، ولم تعد إسبانيا دولة مهاجرة بل أصبحت بلاد هجرة. لكن، هل يحق لنا قبل هذه الفترة الحديث عن سلالة من الحارقين المغاربة الأوائل؟

4 – 1 – الحارقون المغاربة الأوائل

يبدو أن المصادر التاريخية والديبلوماسية المغربية شحيحة بشأن المغادرات الأولى لهذا البلد لسبب من الأسباب، أهمها أن الأمر يتعلق بأمن الدولة وأسرارها. ولئن كانت رحلة الأوروبيين إلى المغرب قد عرفت تنوعاً:

فهي إما رحلات تبشيرية، وإما تجارية، وإما سفارية تستهدف افتكاك الأسرى وعقد معاهدات تجارية، فإنها - لأسباب موضوعية - لم تكن لدى المغاربة إلا سفارية، نظراً للاعتبار التالي: "إذا كان باستطاعة الرحالة أن يتوجه إلى أي بلد شاء، فإن **السفر إلى أوربا كان مقتصراً - في غالب الأمر- على السفراء المبعوثين**. ذلك أن **الإقدام على الجولات في بلاد النصارى، كان ينظر إليه من طرف العامة - بل وحتى الحكام - بمنظر الريبة**، ومن شأنه **أن يعرض المرء لتهمة الإلحاد والتجسس لحساب النصارى**"[48]. وهذا ما أكده الرحالة الإنجليزي جون ويندوس، حين أثبت في رحلته حادثة قتل السلطان المولى إسماعيل للعربي الشط الذي نعدُّه من أوائل المهاجرين السريين المغاربة في القرن الثامن عشر: "لأنه غادر وطنه، وأقام ببلاد النصارى لمدة طويلة، دون علم السلطان. كما أنه زنى مع نصرانية وكان يديم السكر. وقد اتُّهم كذلك بالإلحاد، وبكونه من بين أولئك الذين يدلُّون الإسبان لغزو بلاد البربر"[49]. إن مغادرة البلاد سِرّاً مدعاة لكيل العديد من التهم: أولها مغادرة التراب الوطني دون علم السلطان، وثانيها الزنى وثالثها العربدة ورابعها الإلحاد وخامسها الجاسوسية لحساب "الكفار".

وإنَّ صمت الوثائق المغربية عن مثل هذه المغادرات التي كانت تدخل ضمن "الانفلاتات الأمنية"، قد حال دون رسم صورة واقعية وحقيقية، لهؤلاء الذين ينحدر "الحارقون" الجدد من سلالتهم.

في البدء كان التشدد من جانب الذات يؤدي إلى "تكفير" من يصاب بغواية بلاد "الكفر"، أما في القرن العشرين، فقد تضاعف التشدد الأمني في إجراءات المراقبة الحدودية، إضافة إلى "سياسة الأسوار"، مما أدى إلى انفلات عفريت "معاداة الموروس" من قمقم المكبوت التاريخي الموروث، كما أسفرت عن ذلك أحداث إليخيدو الشهيرة[50]. وهي أصدق تعبير عن العودة إلى المتح من خزان النماذج (Stéréotypes) والأحكام المسبقة (Les préjugés)عن "المورو"[51].

4 – 2 – الذاكرة المعتقَلة

بموضوعية كبيرة قال: أنطونيو دي بيينا: "نحن – الإسبان – عنصريون بسبب عدم تعودنا على التعامل مع الآخر"[52]، نتيجة القرون الطويلة من الانغلاق السياسي والثقافي والديني.

كما لاحظ الأديب والمفكر الإسباني خوان غويتيصولو أنه على الرغم من مرور ربع قرن على عودة الديموقراطية، فإن "المجتمع الإسباني ما زال بعيداً عن العقلية الديموقراطية"[53].

في مختلف مدن شرق إسبانيا لا تزال تقام احتفالات سنوية تدور فيها معارك متخيلة عن **المسيحيين والموروس**، تدور فيها الدائرة على هؤلاء. وهذا ما استوقف رشيد نيني في يومياته:

"هناك قصة تجسَّد كل سنة في شوارع هذه المدينة، اسمها (**موروس وكريستيانوس**). محتوى القصة أن ملكاً صليبياً سيأتي بجيشه عند ملك عربي، وسيقف أمام باب الحصن، وسيقنع الملك العربي بمغادرته عن طريق إلقاء قصائد شعرية. هكذا يخرج الملك العربي ويعود إلى أرضه وراء البحر صحبة جنوده. ثم يدخل الملك الصليبي الحصن...في اليوم الأخير من الاحتفال ينتصر الفارس الصليبي، ويسقط الفارس العربي فوق رمال الشاطئ...هكذا تظل الهزيمة التي غابت طيلة أيام الاحتفال محفوظة للفارس العربي حتى آخر يوم من الاحتفال. بدت لي هذه الطريقة في رواية التاريخ للأجانب طريقة ظريفة. ليس هناك داع لتذكير الأجيال الجديدة بما وقع حقاً للعرب عندما طُرِدوا من الأندلس: محاكم التفتيش، التقتيل، الطرد الجماعي. كل هذه الأشياء لن تنفع في جلب السياح."[54] ماذا يعني هذا؟ بكل بساطة يفيد أن "قضية الأندلس انتهت في الزمان، لكنها ما زالت حية في المتخيل"[55]، على حد تعبير بيدرو مارتينيث مونتابت. وبحسب هذا المفكِّر نفسه لا يزال: "الإسباني عندما يحاول دراسة الأندلس في أبعادها المختلفة، فإنه يفشل في ذلك، ويقتصر على دراسة ما هو مرتبط بالأندلس من خلال هويته وماهيته ولا يتعدى ذلك لدراسة ما يهم هوية وماهية الآخر"[56].

4 – 3 – جذور الصورة

جذور صورة المغربي غائصة في المخيال الإسباني وضاربة في أعماق التاريخ، وتلفِّعُهُ بملابساته والتباساته، اتصالاته وانفصالاته، مدّه وجزره. وفي هذا السياق يمكن فهم صور مِيثِية (mythique) من قبيل: المورو "مالو" Malo "شرير" و"بخيل"، المورو "لص قاتل" و"متغطرس" و"ماكر"، المورو "زير نساء"، المورو "قاسٍ" و"شرِس" و"همجي"، المورو "حَرامي"، المورو "كلب" أو "حيوان"، المورو ذو "فحولة خرافية"، المورو "عاشق الموت"، المورو "إفريقي جائع"، المورو "مُقْرِف"، المورو "متهَم" حتى وإن ثبتت براءته.

كتب ميغيل دي ثرفانتس في منتصف القرن السادس عشر عن الموروس: "إن مبلغ همّهم هو سك العملة وتخزينها، ومن أجل ذلك يعملون ولا يأكلون. إن الريال عندما يصبح في حوزتهم. . . .يُحكَم عليه من طرفهم بالسجن المؤبد، وبالبقاء في الظلام إلى الأزل"[57].

وخلال المرحلة نفسها تحدث كونثالو أريندو عن الموروس باعتبارهم "أناساً همجيين لا يعترفون بقانون، ولا بملك ولا بسلم ولا بدين"[58].

أما مارمول دي كارباخال، فاعتبرهم: "أناساً أدنياء يسعون إلى الحرب، لا يعرفون أي نظام في معيشتهم"[59]. كما عدَّهم خوان بوطيرو بينيس: "متغطرسين ماكرين لا ثقة فيهم"[60]. وذهب خورخي دي هنين إلى حد حيُونَة الموروس، فهم – بحسب هذا الرحالة –: "أناس عراة لا يختلفون عن الحيوانات في شيء"[61].

ولا تزال الأمثال الشعبية الإسبانية تسعف الذاكرة ببعض هذا النفور: Quiere el oro y el moro يقصد بها الشخص الذي يريد الاستحواذ على كل شيء. No Hay moros en la costa يقصد بها لا يوجد أي خطر[62].

هذه الذاكرة المثخنة بثقل الماضي، يستعصي عليها التخلص من الارتياب والخوف من الموروس، كما توحي بذلك هذه المقتطفات من يوميات رشيد

نيني، حيث أصبح للسينما والتلفزيون بريّورتاجاته ووصلاته الإشهارية دور حاسم في رعاية الصور الثقافية وتكريسها وتكليسها:

فبخصوص المورو "اللص القاتل"، نصادف صوراً من **فوبيا** الآخر، على لسان شخصية إسبانية تدعى ميرتشي، التي قال عنها نيني: إنها "تخاف..منا أيضاً. مرة أخبرتنا أنها أحيان تتصور أننا سنقتلها ذات يوم ونسرق سيارتها ثم نختفي. المورو يستطيعون كل شيء، قالت ضاحكة" (63).

وعن صورة المورو باعتباره زير نساء، نسوق هذه الصيغة الاستخبارية: "لا أعرف لماذا سألتني [نَطاليا] حول ما إذا كنا حقاً نستبدل النساء بالبضائع في المغرب. قلت لها ممازحاً: نعم. كما أن لكل واحد منا حريمه. قالت أووه هذا مروع..." (64).

ويمكن أن نستشف ملامح صورة المورو القاسي من كلام باكو رب العمل، الذي "همس لميرتشي عندما رآني جالساً إلى جانب أحمد الجزائري أن المورو يعجبونه كثيراً في العمل لأنهم متعودون على القسوة منذ الصغر..."

أعتقد أن باكو كان يريد أن يقول إن المورو يعجبونه في العمل؛ لأنهم يقبلون بالعمل المضني لساعات طويلة بلا ضمانات وبأثمان زهيدة" (65).

ولا تزال الذاكرة الإسبانية مغمورة ومغلولة بالصور الغيرية التي تغدقها عليها "الليالي العربية": "قالت لي [صاحبة الشقة] عندما أطلعتها على اسمي إنني أذكِّرها بالشِّرير الذي كان بصحبة علي بابا وعصابته" (66).

ومن صور **حَيْوَنة** المغربي (والعربي عموماً)، هذا المقتطف الذي يتحدث عن خربشات (garaffiti) مقاعدالحافلات: "أمس قرأتُ خلف مقعد في الحافلة الرابطة بين أوليفا وبيغو عبارات محفورة بشيء حاد: (موروس بيروس) العرب كلاب. تترجم هكذا تقريباً. أو هكذا بالضبط، تقريباً الجميع هنا لديهم كلب أو أكثر" (67).

ومن المفارقات أن خطاب الآخر **يُحَيْونُ الذات**، في الوقت الذي تتم فيه

أنْسَنَة الحيوان لدى الغربي. فالكلبة "إتيل لديها أوراق هوية وبطاقة تخولها زيارات منتظمة عند الطبيب. أنا ليس لدي شيء من هذا" (68).

وقريب من ميث الحيْونة، ميث الفحولة الخرافية، التي تجعل المورو في تهالكه على الجنس، كائناً أقرب إلى "الحيوان" منه إلى الإنسان: "عبد الوهاب يردد أن الإيرلندية صاحبة البار حيث يشرب واقعة في حبه، لأن زوجها مجرد ثور أليف لا فائدة منه. يقول إنهن يفضلننا نحن العرب لأننا فحول. هذا مضحك. النساء هنا يعتقدن أننا كائنات جنسية بأعضاء تناسلية جبارة، الأفلام التي يقدمون في التلفزيون تصور الرجل العربي كأبله بلعاب سائل عند رؤيته للمرأة. وأحياناً كشخص ببطن مندلق ونظرة شريرة يقدم السم في شراب لشخص آخر. لذلك فكرت دائماً في أن السينما هي آخر مكان يمكن أن نلجأ إليه للتعرف على الآخر" (69).

ولعل الصورة التي يورِّثها **المخيال السينمائي**، لا تقل بشاعة عن تلك التي تروِّج لها وسائل الإعلام السمعية والبصرية، وعلى رأسها **القنوات التلفزية**، حيث يظهر المورو "اليائس" "عاشقاً للموت" حتى النخاع: "التلفزيون لا يقدم عنا كبلاد سوى أسطول أبدي من قوارب الموت، وشباب يائس يفضل أن يموت في عرض البحر على العودة إلى وطنه. هذه الصورة بالإضافة إلى صور أخرى بشعة عن الجثث في الجزائر تخلق لديهم هنا فزعاً حقيقياً من كل ما هو عربي" (70).

علاوة على الترويج التلفزي لمغرب "الجُثث" في النشرات الإخبارية والريبورتاجات التهويلية، يأتي الخطاب الإعلاني، لتكريس صورة الإفريقي الجائع عبر خدعة الإشهار:

أحمد الفلسطيني "لاجئ سياسي يحب أن يسخر من كل شيء. من منظمة التحرير الفلسطينية إلى الوصلة الإشهارية التي تقدم دعاية لأحد أنواع الحليب. والتي تصور إفريقياً نحيلاً أسود اللون يعثر على علبة من هذا الحليب وسط صحراء قاحلة. فيبتسم الرجل النحيل ويلتقط العلبة ويمضي مسروراً. ثم

تكتب على الشاشة: حليب باسكوا . .حليب المستقبل. يقول إن هذا الإشهار عنصري "[71].

وحتى الأجيال السابقة على الجيل الجديد بإسبانيا، خاصة تلك التي اكتوت بنار الهجرة في عز جحيمها، وجدت نفسها منساقة للُعبة وسائل الإعلام، وألاعيب بعض الأحزاب السياسية التي تحتِّم عليها ملابسات الانتخابات المتح من مخزون الذاكرة المؤسطِرة للمورو "المقرف":

"الإسبان لا يعرفون الكثير عن المهاجرين. على الأقل الأجيال الجديدة. الأجيال السابقة جربت الهجرة خلال الحرب الأهلية، وخلال فترة حكم الجنِرال فرانكو. وهي بذلك تعرف أي جحيم هو أن تهاجر. . .وهم الآن لا يخجلون من أنفسهم عندما يشاهدون شخصاً بملامح عربية ويقولون: أووه هذا مقرف، لقد عادوا ثانية، هؤلاء الموروس!"[72].

ولئن أعوز الدليل على هذا المورو، الذي تعوم صورته في صورة الإفريقي، العربي، المغاربي، الزنجي، يكفي لون البِشرة لإدانته وإيقافه واتهامه حتى وإن ثبتت براءته:

في مدريد "مجرد أنك شخص يحمل بِشرة سمراء تهمة كافية لتوقيفك أمام الجميع وتفتيش جيوبك"[73].

أجل "السحنة وحدها كافية أحياناً لتوقيف الواحد منا وإنزاله من الحافلة وتفتيشه حتى آخر ثنية في جسده. أحياناً يطلبون إليك أن تتبعهم داخل حجرة صغيرة وأن تخلع كل ثيابك ثم أن تلتقط شيئاً ما يلقون به فوق الأرض. يطلبون إليك ذلك فقط لكي تنحني. هكذا لا يظل أي مكان من جسدك مجهولاً أمام نظراتهم المتفحصة"[74].

وهكذا تجتمع في المورو - بحسب المخيال الإسباني - كل صفات الوحشية والحيْوَنة، كما تومئ إلى ذلك الحقول الدلالية لألفاظ ذات توصيف تحقيري، يزج بالآخر في مدارك الدونية، فهو: لص، قاسٍ، قاتل، كلب،

متهالك على الجنس، مجنون بالموت، مقرف، مشبوه، بطن جائع، شخصة من شخصات ألف ليلة وليلة. . .

5 - يوميات مهاجر سري

كان الصحفي والكاتب رشيد نيني من أوائل الأقلام المغربية التي تحدثت عن تجربة الهجرة السرية باعتبارها تجربة معيشة، فرصد محطاتها الحاسمة، وما يلفها من مآسٍ:

أ - لحظة التأهب، وهي لحظة استيهامات ما قبل السفر

هذه اللحظة بقدر ما تغذيها الاستيهامات والأحلام الفردوسية، تشحذها غُمة النقمة على الذات الكسيرة، الباحثة عن الخلاص في مصير غامض وغائم.

يمكن رصد **نِعمة الاستيهام** من خلال مقتطفات تتحدث عن فضاء الآخر أو الفضاء الآخر باعتباره أرضاً موعودة، وأرض خلاص، وفردوساً مفقوداً:

أولى الاستيهامات هي اعتبار إسبانيا بمنزلة الأرض الموعودة:

"الآلاف يقضون سحابة أيامهم في تغذية مصائرهم باستيهامات مضببة حول عبور غامض لمضيق غامض نحو الأرض الموعودة"[75].

يغذي الاستيهام الأول ويستتبعه استيهام ثان ينبثق عنه؛ لأنه يعتبر "الأرض الموعودة" "أرض خلاص":

"عراقيون، مغاربة، جزائريون، أكراد، باكستانيون، غجر، هنود سلالات بلا عدد تجوب هذه القارة العجوز بحثاً عن خلاص ما"[76].

ويستتبع الاستيهام الثاني استيهام ثالث يرى في فضاء الآخر "فردوساً مفقوداً":

"قالت [بشرى]: إن إسبانيا رائعة. قلت لها نعم رائعة، لذلك لم يتحمل العرب جمالها فخرجوا منها جماعة. وها هم يندمون الآن ويعودون إليها، فرادى وغرقى في الغالب"[77].

أشرنا قبل قليل إلى أن لحظة التأهب تتمفصل في مركَّب نفسي يزاوج حلم الخلاص بالنقمة على الذات.

وهذه التوليفة العجيبة بين **الرغبة في الآخر** و**الرغبة عن الذات**، هي مسوغ الإقبال على نقل البرنامج السردي التأهبي من لحظة الكمون إلى لحظة الإمكان أو التحقق.

تتجلى نقمة الذات في نقدها، من خلال شجب الواقع، كما توحي بذلك النصوص التمثيلية الآتية، التي تنقل صوراً من جلْد الذات في صيَغ حِجاجية، تدين العدالة المفقودة، والعطالة المستفحلة، وحصار الذات في الداخل، ونتانة الواقع، وهشاشة القيم التي تجعل الفرد على شفا المنزلق، وانبهام المستقبل في واقع موبوء وحرية مفتقدة وشواهد علمية تشهد بالخسران.

وتفتح هذه الصيغ الحجاجية والاحتجاجية على الذات، نافذة على فضاء الآخر الذي يصبح المَخرج من العطالة وبَخس المؤهلات، ومرتع الحريات والديموقراطية والعدالة والآفاق الواسعة.

فبخصوص العدالة المفقودة، نقرأ في يوميات رشيد نيني ما نصُّه: "بعض القُضاة عندنا يباعون بأقل مما تباع الحمير" (78).

وعن المَخرج من العطالة نقرأ تجربته الشخصية المريرة في عالم الصحافة، حيث يصاب المرء بالإحباط واليأس: "قضيتُ وقتاً طويلاً أتردد على مقرات الجرائد... كنت أبحث عن عمل قار. لكن أحداً لم يقبل بي. يقبلون فقط بتوظيف بنات سمينات يحررن مقالات مليئة بالحماقات ويرسلونهن لإنجاز تغطيات في الفنادق ليأكلن بالمجان. أصابني اليأس... المَخرج بالنسبة إلي هو أن أذهب في رحلة طويلة عبر العالم" (79).

وباستثمار عناصر سير- ذاتية، تمَّ الحديث عن حصار الذات: بعدما تَلقّى المؤلف دعوة للمشاركة في تغطية أشغال المؤتمر العالمي الأمازيغي، طار بها نحو القنصلية الإسبانية: "وهناك في شارع الجزائر كان يجب أن أقضي ليلتين

فقط لكي أحصل على المطبوع الذي تخصص منه القنصلية نسخاً محددة كل يوم" [80].

وبالمكون السير – ذاتي نفسه، تم فضح نتانة الواقع: "كان يقضي العطلة في شاطئ مخيم روزماري سابحاً في مياه تختلط فيها مياه البحر بمياه الواد الحار، حتى إنه كان يستحيل أن تتجول مساء في الشاطئ دون أن يساورك الشك في أنك تتجول قرب دورة مياه كبيرة ومعطلة. فكان طبيعياً أن أغادر المغرب ببقع حمراء فوق جلدي كتذكارات حميمية من مخيم بروليتاري" [81].

هذا الواقع المهترئ الذي يجعل الشباب على شفا المنزلق: "أنا مشكل يتطلب حلاً. في الحقيقة من الممكن جداً أن أكون مجرماً، أو – على الأقل – أن أصبح كذلك" [82].

كما قد يجعلهم أمام مستقبل مبهم: "فكرت قليلاً في مستقبلي. لم أرَ شيئاً. المستقبل مكان غير مضاء، أو أنه مضاء بشكل سيئ. لذلك تبدو الأشياء فيه غامضة، وغير آمنة" [83].

"يسألني [مانويل]كيف هو المغرب الآن. أقول سيئ للغاية" [84].

فلا مستقبل في واقع واقع موبوء، تُستباح فيه الكرامة: "لم أشرح لكارل أن الأثرياء الذين كان يغنّي في بلاطاتهم لديهم أيضاً بلاطات في المغرب حيث يستوردون العذراوات إليها ليفتضّوهن مقابل حفنة من الدولارات، لأن شرحاً كهذا لن يفيد كارل في شيء" [85].

ولا أمل في واقع تُفتقد فيه الحرية، وتصبح فيه الشواهد العلمية شاهدة على خيبة أصحابها. ولهذا جاءت الكتابة عند رشيد نيني تعرية وفضحاً، وإعادة وصف لجريمة اسمها الحياة: "أنا أكتب لكي أفضح شيئاً داخلي. شيئاً يخجلني حتى الموت" [86]. إن الكتابة هنا نافذة على البوح والإفصاح عن مكنونات الدواخل، التي ترزح تحت ما يخجل حتى الموت. وهي أيضاً كتابة بالخارج، حيث ينكشف ضيق واقع الذات بالحريات، أمام واقع الآخر المحتفي بها: فأنت

هناك "تستطيع أن تتحدث عن الهمبرغر وعن السياسة في نفس الوقت. ولن يفتح لك أحد محضراً في مكان ما" (87).

وحين تعجز الشواهد عن أن تشهد لصاحبها بالكفاءة والفضل، وتبخل عليه بإيجاد فرصة شغل، وتصبح الأمية مرادفة للعمل، والمعرفة بوابة مشرعة على العطالة، لا يبقى أمام المرء إلا المغادرة: "في الحقيقة لم تكن لدي رغبة في متابعة الدراسة في ليدز. كنت أكذب. ما كنت أبحث عنه هو مغادرة الوطن بأي شكل. لقد قضيت عمري كله فوق طاولات الدرس. وانتهيت إلى أن أقسى عقاب يمكن أن يطال الإنسان هو هذا بالضبط. في المغرب إذا حصلت على الدكتوراه بمستطاعك أن تمسح مؤخرتك بشهادتك. . .وعندما انتهيت وجدت أولئك الذين لم يجلسوا أبداً في حجرة الدرس يقررون مصيرك في البرلمان والبلديات ولا أعرف أين أيضاً" (88).

هكذا تتغذى استيهامات الأرض الموعودة، أرض الخلاص والأحلام وجنة المستقبل على نقمة الذات المشرعة على التعسف والبطالة والتهميش وتكميم الأفواه، ومحاصرة الخارج، وانبهام الآفاق المستقبلية، ورَشح الواقع بكل ما هو موبوء. ولم يبق إلا التفكير في المغادرة، وقلب المعادلة التاريخية من: (**البحر وراءكم والعدو أمامكم**) إلى (**البحر أمامكم والعدو وراءكم**).

ب - لحظة الانطلاق، وهي لحظة المغامرة

وهي آخر محكّ لمدى التصاق المهاجر السري بجلدته: "الرباط كما هي العادة مدينة ثقيلة الدم" (89). انقطع الحبل السُّري مع ما هو حميمي في فضاء الذات. وعادت رتابته أقسى من أن تُحتَمل، وانفرط عقد الثقة والتواصل في زمن الرداءة واختلال القيم بين المثقف والمثقف: "عندما غادرتُ، وحدهم اللصوص وقفوا إلى جانبي. في هذا الزمن الرديء تستطيع أن تضع ثقتك في لص ولا تستطيع أن تضعها في مثقف" (90).

ج - لحظة الوصول، وهي لحظة الصدمة

هل كانت لحظة الوصول إلى فردوس الأحلام، لحظة انجلاء الغُمّة، وانقشاع سحب المعاناة أم كانت بداية صدمة مشرعة على كل الاحتمالات؟

يستشعر المهاجر السري بداية أنه مفتوح على غرابات مختلفة: غرابة الزمكان والناس، وغرابة ما بذات الجيب: "أوروبا حقاً ضفة أخرى للعالم، فبمجرد ما تقطع المضيق تشعر أنك تركت عالماً ودخلت زمناً آخر، بناس آخرين وتطلعات أخرى ومشاكل مختلفة تمامان وغريبة أحياناً" (91).

"عندما حولت دراهمي إلى البسيطة أصابني الاكتئاب. وعندما حولت البسيطة إلى الفرنك الفرنسي أوشكت أن أبكي" (92).

وقد شكلت هذه الغرائب، عتبة لوضع غريب وشاذ على المهاجر تحمله حتى النخاع في لحظة موالية هي لحظة الإقامة في سرية تامة غير منقوصة.

د - لحظة الإقامة السرية

هي أيضاً من أقسى اللحظات في حياة المهاجر السري، لأنها لحظة الحضور في الغياب، أو فجوة الوجود في العدم، حيث تكاد تكون الكينونة مرادفة للانمحاء حدَّ المحق:

تتوزع لحظة الإقامة سرّاً لحظات الحذر والاختفاء، وهي لحظات التَّوق إلى الطمأنينة وحرية التجلي، ضدّاً على لحظات الفرار الدائم والخوف من الظهور والتعقب المستمر ووسواس الافتضاح، وعيون الاستغراب التي تجلد غير الشبيه: "تعبت من الحذر باستمرار. وأريد أن أخرج من البيت بلا حاجة إلى هذه الساحة. وأتجول صحبة أحد دون أن تتوقف سيارة الأمن خلفي، ودون البحث عن شروحات لتبرير جولة قصيرة من دون رخص كثيرة. تعبت من الاختفاء طوال الوقت كمعتوه. والركض كلما دعت الضرورة إلى فرار. أريد أن أنظر حولي فأرى أشباهي، فلا تثير سحنتي وسطهم استغراب أحد، ولا ترهبني امرأة، ولا ينظر إلي طفل بفم نصف مفتوح. أريد أن أمضي إلى النوم دون حاجة إلى تفقد قفل الباب ومحفظة أوراقي تحت وسادتي مرات كثيرة في الليلة" (93).

يستتبع الإحساس بالحذر الدائم والاختفاء المستمر حدَّ الانمحاق، شعور بلا مواطنَة مستحَقَّة: في الداخل لا يستحق المهاجر أن يكون مواطناً، وفي الخارج يستحق أن يكون لا مواطناً، ما دام محروماً من كل هوية، وما دامت السرية هي لعنته الأبدية لأنه اختار الحرق: "أن تمكث هنا بلا أوراق، يعني ضمنياً أنك قابل مع الوقت للتحول إلى وغْد؛ لأنك ستكون محروماً من العمل والإقامة، ومن ثم من المواطنة. ولا شيء سيكون مضموناً بالنسبة إليك. ليس لديك الحق في تقديم شكوى ضد من قد يكون استغلك أو سرقك أو احتال عليك؛ لأنك شخص سري"[94].

وأمام هذه "اللامواطنة المستحقَّة"، تفضي الهويات العربية المختلفة إلى هاوية واحدة: فالهاوية تترصد الهويات العربية، التي تذوب في الكل لتكون لا شيء: "عبد القادر [وهو جزائري] يقول ضاحكاً إنه في كل مرة يُعتقل يعطيهم اسماً وجنسية ما. مرة عراقي. مرة فلسطيني. وهكذا. ويضيف إنه جامعة دول عربية متحركة. بمجرد ما وصل إلى إسبانيا أحرق جواز سفره. هكذا تخلص من هويته. وظل هكذا، مجرد مواطن يحمل جميع الانتماءات العربية دفعة واحدة. في كل مرة يشهر انتماء ما"[95].

وهذه "الهويات اللاهوية" منذورة لعمل أسود وأجرة ناصعة السواد: الاختفاء يفرض العمل في سرية. وإكراه السرية مَجْلبة للابتزاز: "كانت أجرتي حقيرة"[96]. وهم "عندما يشغِّلون شخصاً بلا عقد، فهذا يعفيهم من دفع واجبات الضمان الاجتماعي"[97].

وتترصَّد اللاهية وحدةٌ إلى حد الوحشة، فعندما يكون المهاجر مجبراً على التكتم والاختباء والانطواء والعزلة، يظل فريسة للوحدة والوحشة إلى حد الجنون: "تمنيت أن... يأتي الزبائن من كل أنحاء العالم ليشربوا قهوة بجانبي، فلربما كانت عزلتي ستكون أخفّ"[98]. وبعد هذا الإسرار الشفيف بضمير المتكلم المفرد الواحد المتوحد في عزلته القاتلة: "أشعر بالوحدة"[99]، ينثال الشعر شلالاً بارداً من الوجد على إخفاق الصُّحبة:

"وحيداً
مثلما يذهب جدول وسط غابة
عندما قابلتني الوحشة
صرتُ أكلم نفسي
لأبدوَ مصحوباً بأحد" (100).

وإذا ما راودت المهاجر فكرةُ التغلب على الوحدة القاتلة، ومنّى النفس بالظهور، أضحى فريسة لمطاردات بوليسية، ربما أصابت منه المقتل: الاعتقال، فالطرد: "أمس مرت سيارة البوليس من أمامي ببطء. عرفت أن سحنتي وشت بي، لمحت السيارة تتوقف على مبعدة أمتار، من خلال الرقم الأبيض المكتوب في أماكن عدة من السيارة عرفت أنهم فرقة من البوليس المكلف بالمهاجرين. استدرت بسرعة وغيرت وجهتي. لحسن الحظ كان هناك ممر جانبي يفضي إلى شارع المحيط. عندما بلغت الممر أطلقت ساقي للريح. ركضتُ كما لو في قصف. عندما تيقنت أنني ابتعدت توقفت. لأنه ليس آمناً أن تركض بهذا الشكل، خصوصاً من دون بدلة رياضية. عدت إلى البيت صامتا، لا أعرف كيف بررت هذا الموقف أمام نفسي" (101).

لا شك أن هذه اللحظات القلِقة، بكل اختلالاتها ورهبتها وترويعها، هي التي ولَّدت لدى رشيد نيني شعوراً طبيعياً بالحنين إلى العش الأول، كاشفة عن مكر التاريخ، ودسيسة الحرق الأول، والرضى من الغنيمة بالإياب. فحين تستعيد الذاكرة درس التاريخ ورمزية الحرق، تطفو على السطح صورة قائد اسمه طارق بن زياد، وقف ذات زمن - بجَلَد الفاتح - يخطب في جنده قائلاً: (البحر من ورائكم والعدو أمامكم وليس لكم والله إلا الصبر...)، وأحرق السفن، لا لشيء إلا لكي يحفز همة الفاتحين، ويقيَهم نزوة الفرار والتراجع والتخاذل والخوف. لكنَّ مكر التاريخ جعل حفدة طارق يتحرقون لتبديل جلدتهم، ولو بحرق الهوية، فتحول المتوسط من حلبة لرهان التاريخ إلى مقبرة لجلد الذات نقمة من وطن "لا مواطن". هنا يدرك المهاجر الفرق بين من أحرق السفن

ليعود بالغنائم، وبين من أحرق أوراق الهوية ليبوء بالخسران والفقد، ويصير سبياً وغنيمة:

"كنت أستغرب كيف استطاع طارق بن زياد. . .أن يحرق السفن حتى لا يعود أحد إلى المغرب، قائلاً لجنده إنهم في هذه الجزيرة أضيع من الأيتام في مأدبة اللئام. . .الآن أيضاً أفهم لماذا يحرق المهاجرون جوازاتهم عندما تلوح أمامهم أضواء الأندلس ويرمون بها في عرض البحر. يصنعون ذلك لكي لا يعود أحد حياً إلى الضفة الأخرى. فإما الموت وإما الغنيمة. وإحراق الجواز لا يختلف كثيراً عن إحراق سفينة العودة. . .لكن المضحك حقاً في كل الحكاية أنه لا غنيمة هناك البتّة" (102).

وحين ترضى الذات من الغنيمة بالإياب، لا يبقى لها سوى جسدها للتأمل والشهادة: جسد المهاجر هويته، بأعطابه وخدوشه وجراحه: "الأصابع المشققة تفيد كثيراً كبطاقات هوية للمهاجرين العرب في هذه الجزيرة أكثر من تلك البطاقات الزرقاء الشبه مستحيلة التي تخولك حق العمل والإقامة، والمكتوبة بحبر تافه يستطيع أي طفل أن يدلقه على ذيل جرو" (103).

في "الهناك" يصبح الجسد بلا روح: هذا الجسد الذي إن أفلت حياً إلى الهناك، يحكم على الروح بالموَات والهوان. ولكي يشتغل الجسد كما أريد له، أو كما قُدِّر له، عليه أن يتخلص من روح الروح، ويجهز على البقية الباقية منها: "يجب علي ابتداء من العاشرة ليلاً حتى الثامنة صباحاً أن ألتقط كل الكؤوس والقناني الفارغة التي يتركها السكارى مهملة فوق الطاولات أو فوق الأرض أو في دورات المياه. وأيضاً يجب أن أنظف الأماكن التي تكسر فيها قنينة ما، وأن أغسل البلاط كلما أصاب الدوار أحدهم وتقيأ البيتزا التي التهمها على عجل" (104).

كما قد يغدو جسداً بلا جِلدة: هكذا ينبغي أن يكون جسد المهاجر، جسداً بلا بِشرة، لأن "البشرة غالباً ما تشي بصاحبها، فينتهي بك المطاف في المحكمة" (105). وعليه فإما جسد بلا جلدة، وإلا لا جسدَ ولا جلدة، والإكراه البدني أهون على المهاجر من الانسلاخ والطرد.

ولا يبقى من هذا "الجسد اللاجَسد" سوى ما يشبه الجسد للإدانة والاعتبار، كما يمكن أن نفهم من هذا المشهد التلفزي الذي يفتتح به رشيد نيني يومياته: "بالأمس تحطم قارب صغير في التلفزيون. على الشاطئ الصخري، كانت الجثث السبع تستريح مثل سفن منهكة. .كان هناك من جرجر الجثث نحو الرمال وغطاها برقع من القماش. الجثث مبللة ومرتبة الواحدة إلى جانب الأخرى.

اليوم عادت الصورة وظهرت في بعض الجرائد" [106].

حين لا يكون الجسد شهيداً، يكون شاهداً على الألم السافر: "في الليل نزعنا الستائر القليلة التي تغطي النوافذ وتدثرْنا بها. في البيت لم يكن هناك شيء آخر غير الأسِرّة العارية. الريح تعوي في الخارج كذئبة جائعة. طوال الليل لم أنم" [107]. كما يكون الجسد شاهداً على جرح غائر، يحوله إلى مقطوف في محنة القطف: "المقص ذبحني في اليوم الأول من العمل. لم أحمل مقصاً في حياتي. حملت كتباً تافهة ومحاضرات تبدو لي الآن من قمم هذه الأشجار[في حقول البرتقال] مثيرة للقرف. أحمد الجزائري ذبح ثلاثة أصابع. . .أحمد يحمل إجازة في الكيمياء من جامعة وهران. لا يستطيع رؤية والديه، لأنه من دون أوراق. مرت عليه خمس سنوات لم يفكر فيها مرة بالعودة إلى الجزائر. يقول إنه إذا عاد سيجد سيارة الشرطة باستقباله في المطار. هناك أربعة وعشرون شهراً من الخدمة العسكرية بانتظاره. الجيش يبدو بنظره حماقة كبرى. يقول إنه لا يحب السلاح ولا يريد أن يتعلم كيف يطلق الرصاص، وأن هذا من حقه" [108].

نكايةُ الجسد في الروح، أن يصبح الجسد مرفأ نجاة المهاجر. وهذا يمنحه قناعة ما بعدها قناعة في خذلان الروح، وتغدو "عودة الروح" في خبر كان، بعد "عودة الجسد": "كريستيان وإسيدور وأحمد في نظري أهم من كل المثقفين؛ لأنهم يقطعون البرتقال ويملأون الصناديق عوض ملء الجرائد بالأكاذيب" [109].

ونكاية في الروح، يتم الانحياز للمادي على حساب المعنوي؛ لأن الزمن الرديء يقلب منطق معادلة الربح والخسارة: "إذا تعلمت الشعر ستصبح شاعراً.

وهذا للأسف لا يفيد شيئاً في هذه الأزمنة الرديئة، أما البيتزا فتستطيع الاعتماد عليها، لأنها تباع بشكل رائع للغاية. ليست كدواوين الشعر التي تأكلها الشمس في الأكشاك "[110].

هـ - لحظة الحنين

أن تستعير لغة القوي للتعبير عن حاجاتك، تلك هي أولى لحظات الوعي بالآخر وتأمل البلد المنطلق من الهناك. وفاتحةُ عتبات التأمل غربة اللسان، حين يتخلى المرء عن لسانه. وفي سلخ اللسان سلخ الإنسان جلده من أجل قشرة خبز: "عندما تكون مهاجراً سرياً، بلا عمل، بلا نقود، فهذا يعني أنك يجب أن تتحول إلى ببغاء. أن تتعلم لغات كثيرة. في هذه القارة يتخلى الضعفاء عن لغاتهم الأم. يجب أن تتكلم لغة الأقوياء. هذا وحده يكفل الخبز "[111].

وحتى **التسامح فوق العادة**، يشعل فتيل الحنين إلى "الهنا". فمتى جاوز الشيء حدَّه انقلب إلى ضده؛ بحيث تغدو النظرة المتسامحة جداً، عدوانية جداً ومتجاهلة أشد ما يكون التجاهل: "يجب أيضاً أن تتحمل نظراتهم المتسامحة. أخطر ما في هذه النظرات هو كونها بالضبط متسامحة، متسامحة جداً إلى درجة العدوانية، أو التجاهل "[112].

إن بلدك لا يغادرك وإن غادرته، ومهما اشتط البعاد يبقى اللسان هو ذلك الحبل السُّري الذي يربط الكائن بالبلاد، فتعود إليك من نافذة الذاكرة والذكريات، وقد غادرتها من بوابة البحر: "هل غادرناها حقاً وها نحن نحملها بين أوراقنا وأضلاعنا في المنافي؟ "[113].

بصحوة الحنين، يصاب أفق الانتظار بالخيبة، وتنكشف خدعة التخييل والسراب الخُلَّب: بمعنى هل يحصل المتوقع، وتطابِق الصورة الأصل؟ بمعنى هل تطابق تمثلات الحلم أرض الواقع؟ لا شك أن تقاطب صورة "الماقبل" مع صورة "المابعد"، يبعث على إيقاظ الحنين مهما كانت طاقة التحمل، ومناورات اللامبالاة: "باريس التي في القصائد ليست هي باريس التي فوق الأرض. الشعراء يكذبون أحياناً بشكل مضحك... في باريس تستطيع أن تبيع

وتشتري كل شيء: الجنس، الثياب، العطور، بطاقات الإقامة، جوازات السفر، الحشيش...

أمام الواجهات، كانت الأضواء باهرة. خلفها تماماً تجلس نساء عاريات يلوحن للمارة بأياديهن ويغمزن بشكل داعر. أغلبهن يصلن من أوروبا الشرقية: روسيات، بولونيات، تشيكيات. بشراتهن الجلدية تفضحهن. هكذا ذاب جليد الشيوعية عن شرق أوروبا لتنكشف مؤخرة هذه الكتلة أمام العالم بشكل ناصع." (114).

هكذا تكذِّب الرؤية الرؤيا، لتنعم الذات المهاجرة بلذاذة الحنين ودفئه وسحره، بعد أن أعيتها بشاعة الهناك وعنصرية ذوي الرؤوس الحليقة: "أنا لا أعرف لماذا تغنى الشعراء بنهر السين. هذا الواد النتن الذي يجرف كل شيء في طريقه نحو مصبه الكئيب. على حافتيه يتمدد المعدمون واللصوص والباحثون عن إبرة ملوثة ينشبون بها سواعدهم العجفاء بحثاً عن انخطافة ما وسط عاصمة النور هذه. أتذكر نهر أبي رقراق، الأنقى بين كل الأنهار. أتذكر عندما كنت أجذف بجسمي النحيل قاطعاً النهر بألمان وإنجليز وطليان يضحكون ويلتقطون الصور. في الليل نتمدد في القارب وسط النهر. نرمي شصوصنا في الماء بحثاً عن سمك الكوال الكسول الراقد في قعر النهر مثل كنز قديم. نشرب الشاي ونرى أضواء حَسّان والوداية وبيوتات الملاح الغارقة في الحزن.

هذا السين العكِر لم يعد يصلح سوى لجرف جثث العرب التي يلقي بها أحفاد الثورة، أولئك الأغبياء الذين يعتقدون أن مجرد حلق الرأس كاف للحقد على العالم" (115).

الوحدة فسحة للتفكير في الجذور، وفرصة لإنعاش الذاكرة بمعسول الذكريات: وهذا هو الحنين، الذي يأخذ المهاجر في رحلة شوق إلى "الهنا"، بعد الفراغ الأونطولوجي الذي يكابده "هناك": "إحساس بالحزن يلفني وأنا أعبر الشوارع. تستطيع أن تقضي النهار كله سائراً في الطريق دون أن تلقي السلام على أحد. عندما تأتي لتعيش هنا يجب أن تكون قد قررت أن تعيش بجذر مقصوفة، مثل النبتة التي تنتزع من تربتها لتستنبت في تربة أخرى. الجذور

ليست بالنسبة إلي شيئاً آخر غير ضجيج الأطفال أمام عتبة الدار، وشجار الجارات الجميل في الحارة؛ هي صوت المؤذن فجر كل يوم، واجتماع العائلة حول المائدة. هي الخبز الذي تعجنه أمي، والذي نأكله ممزوجاً برائحة الحطب. هذه الحياة لا تليق بي. تبدو لي سرعته مريعة. الوقت هنا عدّاء حقيقي يركض بلا تعب" (116).

لماذا هذا الابتهاج لدى رشيد نيني بالهنا المستكشف من جديد؟ لماذا هذه الذاكرة السعيدة الجذلانة في خِضَمِّ عنف الحاضر؟ إنه تحدّي الاستمرار بكل إصرار، والإبانة عن استعداد متأصل لتحرير الهنا والذات من معوقات التحوّل، والانعطاف على ممكنات وآفاق رحيبة قد تتسع مهما ضاقت السُّبُل، وتنمَّرت الأحوال، ما دام هناك بصيص من تقدير الذات واحترامها، ولوعلى مضض.

و - عودة الطائر وانتصار الحنين

هي لحظة توطد الحنين، وتوطن العزم على رحلة العودة. .عودة الطائر إلى عشه وذويه: "كان لا بد أن أعود، مثل أي طائر مهاجر يترك المناطق الباردة ليرحل نحو الدفء.

وأوروبا باردة كنظرة يصوبها نحوك جار متعجرف داخل مصعد. و**الحنين خصم المهاجر**. يبارز بشراسة كل من ينازله. وأنا المهزوم العائد إلى موطنه، بتمزقات عضلية كثيرة في الظهر، وأصابع خشنة صالحة لكل شيء إلا للكتابة" (117).

هل هي خيبة جسد منهك، أم فشل روح في الاندماج، أم تصالح مع عين كُتِب لها أن ترى ما رأته، لأن "المغاربة. . .يعتبرون ثقافتهم هي الأحسن دائماً" (118)؟

6 - الحراكَة: لحظة التحرُّق والانتظار والخوف

مع رواية "الحراكة" للماحي بينبين، نكون مع تجربة واكبت عن كثب أطوار تجربة "الحريق" من بدايتها، خلافاً لتجربة رشيد نيني. وهو ما سيمنحنا

فرصة لاستكشاف جوانب سرية في تجربة أونطولوجية متفردة بشخوصها وأحداثها وزمنها وأفضيتها:

6 – 1 – ترقُّب الليلة الموعودة

بين مخلب الواقع المرير وكماشة الاستيهام الخُلّب، يتم الانتظار والتوجس والترقب، تأهباً لليلة الموعودة.. ليلة الانطلاق والمغادرة، التي لا تزال دونها ليال طوال من تحيُّن الفرص: "في ليل بهيم قاتم، كنا مختبئين خلف صخرة، ننصت إلى صوت الأمواج والريح"[119]. و"نسمع صوت البطن الجائع وكأننا نسمع أصوات أمواج البحر داخل محارة"[120].

وتنضاف إلى الجوع والبرد، حالات نفسية من التعب والقلق والشك: "كنا متعبين، مجمدين بالبرد، وقد استبد بنا القلق والشك"[121].

وكان هذا الانتظار يتم في جو من العنف والقسوة تعلوه سحائب دخان الكيف.. [122]. وكان قلق الترقب أعظم في ظروف قاسية من التعب والإنهاك والانتظار: "ما زلنا نراوح في المكان ذاته، نرتجف من الخوف والبرد، وقد أضجرتنا الرطوبة العفِنة وإرهاق البدن والأعصاب...كان النهار طويلاً والليل أطول"[123].

وكان فندق الانتظار بطنجة عبارة عن "جُحر مفروش بحصير تنبعث منه رائحة العرق والأرجل القذِرة، وبول الأطفال والسمك المقلي البارد وفضلات البهائم والبَخَر والكيف والتبغ المخلوط بمختلف الأبخرة العفِنة... مجمع حثالة المجتمع من المشردين واللصوص ... فندق أقرب إلى مزبلة منه إلى شيء آخر"[124].

ويأتي السؤال الحارق: "ماذا ننتظر؟ لا أحد يعلم، ولا أحد يجرؤ على طرح هذا السؤال على المهرِّب. تُرى هل يعرف هو أيضاً أي شيء؟ الشك مسموح به. مرت ساعات على اختبائنا مثل الجردان، لا نكاد نتنفس من فرط خوفنا من أن يقبض علينا حرس الشواطئ"[125].

6 – 2 – سلطة المهرِّب

تنضاف إلى مخاوف الترقب، فزاعة المهرِّب الذي يطلق عليه اسم "الباطرون"؛ فشخصيته "تثير الخوف والفزع. ومستقبلك رهين بين يديه"[126]. إنه "رجل شرس ومخيف"[127]. لكنه شخص يُنظر إليه كمنقذ ومخلِّص وداهية في علوم البحر، أو على الأقل ينبغي أن يُنظر إليه كذلك: "يبدو أن منقذنا بحار ماهر: انظروا إلى طريقة فحصه للسماء، لا يترك ذرة شك في أنه يعرف لغة النجوم. صدقوني: إنه أستاذ في فن فك طلاسم الليل. للقيام بهذه المهمة، عليك أن تكون فناناً، فناناً أصيلاً، يا أبنائي"[128].

6 – 3 – تنويعات لمحكي الألم

المهرَّبون يعيشون أحوالاً وأهوالاً. **وهم** في الرواية أصناف وأشكال وأجناس، قاسمهم المشترك هو المعاناة: "الكل يرتعش من الخوف والبرد"[129].

كانت رحلة الهجرة السرية تضم امرأة مع رضيعها وجزائري من البليدة ومراكشي وماليِيْن. الكل يضمر قصة خاصة هي الحافز على المغادرة. وكل القصص تحكي ألماً يستبطن الموت:

رضا مثلاً تجسيد لوضع لا يبعث على الاطمئنان: "وجهه شاحب متوتر، يضم حقيبته وأسنانه تصطك وهو يرتجف"[130].

ويوسف هو ابن شاوش، تحت طائلة الجشع، اضطر إلى سرقة كيس دقيق من قبو البلدية، فأطعم به أسرته دون أن ينتبه إلى وجود سم الفئران، فكانت النتيجة موت الأسرة بكاملها وجنون الوالد[131]. هكذا "فكر يوسف في الهجرة بحثاً عن حياة جديدة.. قِسطٍ من حياة جديدة أحسن"[132].

وتحت ضائقة ذات اليد، لم يستطع المالي أن يوفر لزوجته وأبنائه الثلاثة ما يسدون به الرمق[133].

أما نوارة مع رضيعها، فتذهب في رحلة بحث عن زوج ابتلعه الخارج.

إنها مرضعة تحضن وليدها، "الحياة والموت مجتمعان في صمت ووحشة" [134].

وكان الجزائري من الناجين من مجزرة البليدة، وهو "ما يزال يطمع في (العبور الأكبر) على الرغم من إخفاقه مرات عدة، لم يترك وراءه غير بيت من طين وحصير من (الحلفاء) وجلد الخرفان وبعض الوسائد، وأسرة تثقل بمصروفها الكاهل، نظراً لعدد أفرادها" [135].

لمجزرة البليدة قصة، و للمغادرة قصة مضادة. [136].

وتقف "المشاكل والفقر المذقع والسلطات مصاصة الدم" [137] حافزاً على مغادرة المراكشي لبلد يأخذ فيه الحجّام دور الممرض الفاشل، ولا يقوى الممرض المرتشي على إنجاد أحد. ولا تمرّ سيارة الإسعاف إلا مرة واحدة في اليوم، وإلا فالذهاب إلى المدينة على ظهر الدابة يستغرق أسبوعاً على الأقل وتحت طائل هذه الإصابة التي تحولت إلى عاهة مستديمة انتحرت الأم غرقاً في البئر [138].

بين أحوال لا يُحسدون عليها، انبرت للحرّاقة صورة تبعث على الغبطة: "هيبين أجانب جاؤوا للتمرد على حياتهم الغربية بالحشيش والكيف، وغبطة المحليين في تحصيل مثل جوازاتهم الحمراء والزرقاء والخضراء. لو كان بمكنتي أن أتبادل قدري مع أحقرهم لفعلت، من أجل الذهاب. الذهاب والنسيان، بعيداً عن هذه الشمس الحارقة واللامبالاة والعطالة والحقارة والارتشاء والاحتيال التي أضحت هنا نصيبنا" [139].

6 – 4 – تنويعات لمحكي الأمل

لتذويب الشكوك والمخاوف، كان المهاجر السري يمنّي النفس بالآتي، ويهوّن من أمر العبور: "العبور إلى مضيق جبل طارق مسألة سويعات ليس إلا" [140]. كما كان يتم تذويب الألم باستيهامات سرابية تارة: "باريس الساحرة، ترن في آذاننا نحن البدويين مثل وعد بالجنة" [141]، وطوراً آخر بسرد وقائع صارت حقائق لأن الذي يحكيها مطرود أوروبي و"(المطرود الأوروبي) تعبير

أصبح استحقاقاً يجلب الاحترام والتقدير والفخر وعزة النفس والكرامة المتعجرفة والاهتمام الخاص، الذي يذكر بالاهتمام بالحجاج لدى عودتهم من مكة المكرمة"[142]. وقد كان هذا المطرود الأوروبي الجزائري يقطن ببار يز "شقة على الرغم من صغر مساحتها، فإنها تضم كل أسباب الراحة من سرير ناعم ومرآة من الصنوبر الأحمر، وتلفاز بالألوان، ومدفأة، وثلاجة وكل التجهيزات الحديثة. . . "[143].

وأمام هذه الوقائع المرسِّخة لحقائق لا تخذل أحلام المهاجر المتأهب، لم يبق سوى إطلاق العنان لاستيهامات وفتوحات لا تعرف الحدود: "من البحر وتحت سماء صافية الأديم سيكون مشهد الجزيرة الخضراء رائعاً عند الفجر. واقفاً في مقدَّم السفينة مثل الفاتح، شامخ الأنف، متحدياً كل شياطين الغرب. وما أن تطأ قدمي اليابسة، حتى أهبّ إلى عناق القلوب الغامضة للأندلسيات "الحوريات". . .إن هي إلا ساعة وننندس بلطف داخل قدر آخر، لنولد من جديد في الخارج، نبدل جلدنا والهواء والعالم. سنبدأ من نقطة الصفر. ساعة فقط وسننظف ذاكرتنا من هذه الذكريات الموحلة، ونطرد من أذهاننا طين الأكواخ، وننسى الحقول المجدبة وحياة البؤس والعوز والشدة، ساعة يا إلهي، سُويعة ليس غير، وستهدهدنا - بعيون مغمضة - أمواج من الأحلام المحرّمة. "[144].

6 - 5 - لحظة الحريق/ احتراق الهوية

تدق ساعة الصفر حين يتخلى المهرَّب عن أوراق هويته، وكل ما يؤشر على تعرفه. تبديل الجلدة يبدأ بالانسلاخ وتكبّد فداحة الاقتلاع بالحرق. . حرق أوراق الهوية: قال المهرِّب: "أوراقكم كلها: جواز السفر والبطاقة الوطنية وعقد الازدياد ومفكرة العناوين، باختصار أي وثيقة تساعد في التعرف على هويتكم، ينبغي أن تكونوا مجردين منها في الضفة الأخرى. . .كان الآخرون قد أحرقوا أوراقهم منذ زمن بعيد"[145].

التعري من الهوية ضرورة حتمية لمقابلة الذات الأخرى التي تقبع داخل

المهاجر، وتنتظر التجلي بعد دق آخر مسمار في نعش الهوية، ودفنها على مشارف الوطن: "حفر المهرِّب حفرة في الرمل ودفن فيها أوراقنا ووضع عليها عصا. سيحرقها غداً دون شك"[146]. هذا هو الدفن الأول لانبثاق خلق جديد من رماده، تماماً كطائر الفينق الأسطوري. ولا يدل على الدفين إلا العصا، التي تبقى شاهدة على شق عصا الانصياع على واقع مستعصٍ.

6 – 6 – لحظة المغامرة والانمحاء

كل مناورات الاختفاء، وعدم الظهور تتلبّس المهاجر السري، الذي "طور حاسة سادسة لرصد البوليس السري والجندرمة والمراقبين وكل من يتزيّا بزي رسمي أو تنكري...فهو لا يستطيع التسكع أو التجول بعيداً عن مقر العمل...وكلما زاد الابتعاد تضاعف الحرص والاحتراس... وعندما يشعر بشيء مريب يطلق ساقيه للريح ليعود إلى عزلته"[147].

تسري في جلد المهاجر السري عادات منها أنه: "عليه أن يتعلم كيف يصبح غير مرئي، يذوب في الحشود، يلتصق بالحيطان، يتجنب التحديق في الناس، وعليه ألا يكلم أحداً، ويُقبِر عزة النفس، ولا يأبه للمضايقات والمعاكسات، ويتعلم الانمحاء، ألا يكون أحداً..أن يكون ظلاً غارقاً في الحشد، كلباً نائماً، مجرد دودة أو صرصور..أجل عليه أن يتعلم كيف يكون صرصوراً"[148].

7 – كوجيطو الإحراق في رواية يوسف أمين العلمي

إحراق الاسم، الماضي، الهوية، من أجل التسلل – في عتمة ليل بهيم – إلى عتبات حلم وردي أقل ما يقال عنه إنه سرابي حتى العدَم، تجربة إنسانية وجودية ووجدانية حولت لحظات المطاردة والعزلة والألم إلى شهادة إدانة ورفض لواقع موبوء مهترئ يطفح بالمعاناة والقهر. هنا يقف المهاجر وجهاً لقفاً أمام صدود الوطن، ووجهاً لوجه أمام المعادلة الصعبة: "إن لم تكن السعادة هنا، فيجب أن ننقب عنها في بقاع أخرى"[149].

7 – 1 – تنوعت الحرقة والحرق واحد

في النص الروائي يصادف القارئ محكيات تنويعية لقصة واحدة: "إنها قصة اثني عشر رجلاً وامرأة، المرأة حامل. اثني عشر زائد الرابع عشر. أربعة عشر شخصاً يعبرون عرض المحيط الأزرق الكبير في ظلمات الليل الحالك" (150).

كل تنويعات المحكي تصب في قصة واحدة، قاسمها المشترك: الإحساس بالألم، وجنون ركوب المجهول. وفي هذا تتوحد الشخوص، حتى لتكاد تصبح شخصاً واحداً متوحداً في قَدره: "بسبب تقاطعهم على أرضية المعاناة الأليمة، كلهم متعجلون ليغادروا المكان إلى المجهول" (151).

لا يوجد المهاجر إلا في الإحراق، لأنه الكوجيتو الذي يؤمن به أشد الإيمان، حتى ليكاد يتحول الإيمان بهذا الكوجيتو إلى عقيدة: "يجب أن تعلمي أمي أني **أحترق لأعرف أني موجود**، أشعل النار في يدي لأتأكد أني ما زلت حياً" (152).

هكذا يتحول كوجيتو الحرق إلى عقيدة من لا إيمان له بوطنٍ كفر بأبنائه، وسلبهم أبسط حقوق الإنسانية في الشغل وكرامة الحياة. فحين لا يشتغل المرء، يفقد الإحساس بيديه، وهذا موت قبل الموت: "لم أكن مجبراً على الذهاب... فعندما تعمل يكون الأمر مختلفاً وتشعر بوجودك. ... وإذا لم يكن لك عمل فأنت لست إنساناً... هذا شبيه بسجن بدون قضبان، لكنها موجودة بداخلك، تمنعك من التنفس، لن تستطيع تحريك ذراعك... وكأنها تموت قبلك، ولا تنتظر موتك، لتتعفّنا معاً. ما أقوله هنا واقع حقيقي. حتى آدم في السماء فهمه... لم يعد يتحمل التسكع في جنة الله... وعندما قدمت له زوجته التفاحة أكلها، ليحصل على عمل ليس إلا، ببساطة. أنا أفهم هذا الرجل... ولكي أجد عملاً سأُمضي وقتي في أكل التفاح" (153).

وبموت الساعدين، تؤول قيم أخرى إلى التفسخ والاضمحلال: "كنت أسكن هناك في الأحياء الهامشية المليئة بدور الصفيح... مسكني بنيته قبل

الآخرين، مساحته ثلاثة أمتار ونصف، وربما أربعة، . . .في الجهة الأخرى للسكة الحديدية، كان نساء أحيائنا – الصغيرات منهن على الخصوص – يمضين أوقاتهن في تنظيف بول الطفل الصغير. .وتنظيف المبولة لتصبح لامعة كمؤخرة السيد، تغيير الورود الصفراء بالحمراء لتسعد السيدة التي ترى أن هكذا جميل، إلى أن يأتي اليوم المشؤوم الذي تُطرد فيه من البيت. فقط لأنها سرقت بعض قطع السكر، أو لأنها تجرأت على نزع يد السيد التي تركها تجول في مؤخرتها" (154).

7 – 2 – نكاية القُرب

المهاجر في هذا السياق الأشق على النفس يقف في الضفة المقابلة، على مرمى حجر من هدفه، الذي يشمت به لأنه قريب جداً، كيلوميترات قليلة ليس إلا . .بركة ماء فقط، هكذا يبدو حوض المتوسط في عين الحراكَة. . لكن دون هذه الشامتة بأضوائها وألقها الظاهر للعيان خرط القتاد: "لو لم تكن هذه الزرقة أمامه، لقطع تلك المسافة على قدميه. كان سيسلك هذه الطريق مشياً على الأقدام. . .هناك إسبانيا – سْبانيا! كل يوم كان يراها تستهزئ به. . . " (155).

وفي انتظار تحقق الحلم، على المهاجر أن يعيش في الماء العكِر. . عليه أن: "يراقب رجال الجمارك، يرتشي أحدهم ويراوغ الآخرين، ثم يتسلل إلى المستعمرة الإسبانية، هناك يشتري تجارة التهريب، وفي الصبيحة نفسها يسلك طريق العودة، يراقب رجال الجمارك، يراوغ الآخرين. . .يعبر حقول القنب الهندي ويصل إلى قريته بعد الزوال" (156).

7 – 3 – التحرق إلى الحياة في دروب الموت: لاهنا ولا هناك

حياة لم تعد تحتمل الحياة المعيشة، فيممتْ وجهها شطر "قِبلة الموت" (157) "السفر النهائي" (158) "الإبحار باتجاه الموت" (159)، فتأتي الرياح بما لا تشتهي القوارب: "في ذلك اليوم شوهدت أسماك غريبة مشتتة هنا وهناك على مقربة من الشاطئ، أسماك ضخمة قد نعتقدها رجالاً. . .إنها تشبه رجالاً إلى حد كبير، لا أكاد أصدق، إنهم حقيقيون. يا للهول أناس من صلبنا ودمنا.

أجسام متناثرة هنا وهناك، ألقى بها البحر بعد أن منحها تأشيرة الموت، سود وبيض، البحر لا يفرق بين ذوي البشرة السوداء أو البشرة البيضاء. كلهم جاحظو العيون... **الموت أن تكف عن رؤية العالم**. الموت ليس إلا فقداناً للحياة" (160).

إذن، لا هنا ولا هناك، فقط يتكفل البحر ببصق "جثث الضحايا على ساحل البحر... أرجلهم عالقة في الطحالب... شعر طويل شديد السواد ضفائره كخيوط عنكبوتية، مندس في أعماق الرمل: "كأنه خبز محروق"... كان هناك جسم امرأة... غريبة الجمال.. ذراعها الأيمن مدفون في الرمال، كجناح مكسور... المطر يهطل على هذه الأجسام المتعفنة المنتفخة، هذه الأعضاء المبتورة، هذه الوجوه المخدوشة، هذه الأيادي المسحوقة، هذه الشفاه المتلفة" (161).

7 – 4 – تبرير الإماتة – القتل من أجل الحياة

ما الذي يجعل الحي يقسو على الحي؟ لماذا يمتهن المهرّب حرفة الموت؟ كيف يبرر مع نفسه، ومع الآخرين مشهد الفاجعة، وهي تعربد على أجساد أثقلها الماء فأغرق أحلامها؟ هل هي رياح العولمة التي تأتي على الأخضر واليابس، حيث يأكل الحوت الكبير صغار السمك؟ "كل هذه الرؤوس، هذه الأذرع، هذه السيقان، هذه الدموع، هذه النظرات، هذه الأحلام، هذه الصلوات، كل هذه العيون محملقة في المياه البحرية، لم أجبر أحداً، أنا فقط أقوم بعملي، أعبر بهم عرض البحر، هذا كل شيء، ليست حيلة معقدة.. خطيرة، إنما ليست معقدة... ماذا بودي أن أفعل لهم؟ أقوم بعملي، كما الجميع. لو علموني الفلاحة أو شيئاً من حراثة الأرض، وإذا استطاعت السماء أن تشفق علينا بقطرات من الماء، لما انوجدتُ هنا لأعبر هذا الظلام الموحش، ربما ليست غلطة أي منا... من قبل كنت أصطاد السمك، أعطيه شيئاً يأكله، لآكله فيما بعد... حتى جاءت مراكب كبيرة، ابتلعت منا كل شيء، حتى أحلامنا... جاءني شخص وقال لي: "لدي أسماك لك، أكبر بكثير من

هذه"، . . . "أتوا من كل مكان، من هنا، من الجنوب، من أدغال إفريقيا السوداء. لا تجهد نفسك في البحث عنهم، فقد حملتهم الرياح إليك على متن مركبها. لا تهتم بأي شيء، فهم مستعدون أن يتراصوا كما يتراص الحوت داخل علبة سردين، آنذاك يجب أن تقوم بعملك الذي تمتلك ناصيته، ولا تتركهم ولو لحظة من الزمن حتى لا يفقدوا أحلامهم" [162].

7 – 5 – هم لم يعودوا يرون، نحن لم نرَ على الإطلاق

كانت حرقة المهاجر إلى رؤية عالم آخر مدهش، أقوى من الالتفات إلى عالمه الذي لا يلتفت إليه، لكن الأنكى في الموت هو أن يكف المرء عن رؤية العالم. والأشد نكاية هو أن "الأسماك تعشق العيون. . .همسات صوت بداخلي يقول: الموت بانتظارك" [163]. فقدان البصيرة مقرون بفقدان البصر. لذة العين مجلبة لنعمة الرؤية، وعماء البصيرة نقمة رؤيا غير متبصرة. "في لذة العين لذة تشبه لذة الوصول. .كما أن فيه المشاهدة وهي أعظم اللذات. .وفيه دهشة الصبيان حين يرون العالم أول مرة. .وإذا قلت رأيت رأي العين فقد صدقك السامع. .والعين نعمة ونقمة. . . " [164].

وحين لا تبصر العين – التي أكلها الحوت – مخاطِبَها، تنطق الجثة: "مَن هنا؟ أأنت أمي؟ كلا إني لا أراك، تعتقدين أمي أن الأمور تسير على أحسن ما يرام مع كل هذا الظلام الذي يحيط بنا. أشعلي إذن فتيل السماء بقبس نار علَّها تبوح بسر من أسرارها! " [165]

هم لم يعودوا يرون، لكنا – كمتفرجين على المشهد – لم نرَ على الإطلاق: "لو كان بمقدورنا أن نرى هؤلاء الرجال المقذوفين من بطن ظلمات البحر واحداً تلو الآخر. .العين تراقب النجوم، والخوف يعصر أمعاءهم. .لو بالإمكان أن نحس القرّ الذي قرص أقدامهم وسيقانهم وأصلابهم. لو تمكّنا من سماع ذلك الرجل يصرخ في الظلام: "أمي أمي أمي أمي أمي. . . " بلعَ حياة غارقة في سرمدية الزبد. . لو كان بمقدورنا أن نرى هذه الأم وهي تمشي بخطى وئيدة لتنعم بالحياة قليلاً، قبل أن ترى جسد ابنها من دون ابنها، يده الرخوة على

الرمل، نظراته المنطفئة على الطحالب وصوته دائماً يجلجل في أذنيها: "يجب أن تعلمي أمي أني **أحترق لأعرف أني موجود**، أشعل النار في يدي لأتأكد أني ما زلت حياً"، لو استطعنا أن نسمع صوته الدافئ.

لو استطعنا.

لو استطعنا أن نرى هذا كله.

لربما فهمنا أننا رأينا صوراً، لكنا لم نرَ شيئاً"[166].

7 – 6 – دقت ساعة الرحيل

دقت ساعة الصفر نشدانا لتجاوز "أيام رديئة"[167]. المعبر قريب، لكن العبورأقسى.. "لم أكن أعلم أني سأعبرحياتي بكاملها في ليلة واحدة، أمي"[168].

ويأتي ما لم يكن بالحسبان نظراً لسلطان هذيان الرحيل على النفوس التي أعياها التحديق في مكر الحياة، فكلّت عن النظر إلى الذات: "ينتهون هكذا على الرمال، تائهين في أعماق المحيط، غارقين في حلم يسكنهم، العروق مفتوحة، على طرفي حبل، رصاصة في الرأس، كل هؤلاء الشباب الذين يفعلون هذا، الرحيل والبقاء هناك إلى الأبد، بدون أكل ولا شرب ولا تنفس، التغلب على الملل، إرضاء الرغبة، هنا طيلة الوقت، إلى حد الهوس، يحملون أحلاماً معلقة بين السماء والأرض، **لا هنا ولا هناك**، كل هذه الأيام وكل هذه الليالي، كل هذه السنوات التي قضوها في أنابيب هذه الحياة الخبيثة، ينهشون جلدهم، يفتحونه ليخرجوا منه ثم يتواجدوا هناك، إنه هذيان الرحيل، الرحيل الذي دقت ساعته"[169].

هذه حكاية هؤلاء الذين "وجدوا الموت بديلاً وخلاصاً للحياة"[170]..حكاية "كل هذه الأجساد التي حُوِّلت إلى صور فوتوغرافية، صور لن تتوقف عن الموت تحت عيوننا، حتى لا ننسى، إلى الأبد، تبقى هنا لتموت بدون حركة"[171].

هي إذن، مجرد صور ملتقطة عن الموت. وبعد أسبوع من الحادث تعرض أسبوعية فرنسية صوراً أخرى للشاطئ تعنونها بـ"يا له من ساحل جميل!"[172]. وبعدها يطلق المذياع عقيرته بنبإ فتَيْن مغرّرين مفاده: "سباحان

متهوران غرقا اليوم بقرب قرية بنيدار، هذا كل شيء. . . "[173]. أجل هذا كل شيء، "هم" لم يروا شيئاً، و"نحن" لم نرَ شيئاً على الإطلاق. لقد رأينا صوراً. .رأينا صوراً تحاكي صوراً. . و"قوارب تحاكي معنى الموت! . . "[174]، كما رَشَحت بذلك قصيدة الشاعر المغربي إدريس علوش:

– 1 –

تُراك
أغمضت تعبَ الجفنِ
في غفوةِ النهارِ
ورشحِ الليلِ
واستسلمت لرحابةِ الأبديةِ
تقرأ كتابَ الجبينَ. .؟!
أم أن هديرَ الموجِ
أثقل كاهلَك بصخبِ العمرِ
الذي مضى
رتيباً
دون معنى. .!
ولِمَ قواربُ الموتِ
تُلقي بأجسادِ الدهشةِ
في مخالبِ البحرِ . .؟
فيما حدودُ الله مغلقةٌ
بالشّمع الأحمرِ
تماماً
كعُلبٍ مصبّرة . .!

– 2 –

آه . .
يا خُطُوَاتٍ على عتباتِ
الجنةِ
تـحُثُّ الرُّوحَ على الرقصِ
بمفردِهـــا
وتستعير من فَيْضِ الصّحراءِ
أشلاءً لأجساد
حزينةٍ
تمضي
دون كَفَنْ . . !
وداعاً
للذين أنهكَهُم سرابُ الخبزِ
الوافدِ من هناك
وتركوا الشَّاهدةَ
تُعانِـدُ
هَـمسَ البحرِ .

8 – بلاغة الألم

اجترحت النصوص التخييلية للهجرة، بلاغة تستقطر جمالياتها من نسغ معجم تقاطبي بين الواقع والحلم، الكائن والممكن، الآن والهنا مقارنة بالمستقبل "القريب" في الهناك. وهي تقاطبات سيميائية بنْيَنَت النصوص الإبداعية السردية في لحظات ثلاث، هي:

1 – لحظة تأمل واقع الذات قبل السفر.

2 – لحظة تأمل معاناة الذات المهاجرة إثر مجابهة بحر الموت.

3 – لحظة خيبة أفق الانتظار بالنسبة للناجين من الموت.

وقد جلبت هذه البنْية المشكِّلة لمفاصل معمارية نصوص الهجرة السرية من الأسباب الجمالية ما يغذي مأساوية التجربة الأونطولوجية للمهاجر. ويبدو – من خلال صور القتامة التي طبعت كتابة الهجرة السرية – أن التخييل فيها ارتبط ارتباطاً عضوياً ببلاغة الألم، التي وظفت شعرية القسوة، لإفسال الملامح الأسلوبية لخيبة الإنسان وهو يمر بإحدى أحلك التجارب الوجودية القاسية. لهذا انهمكت النصوص الهجرية في استثمار صور ومشاهد يغذيها تقاذف المشاعر بين الرعب والحيرة والإصرار والأمل الغائر.

وعلى المستوى السيكولوجي، جسدت تلك النصوص تراجيديا تجارب ذاتية جوانية في مجابهتها لواقع الهجرة، كحدث خارجي يضع الداخل في المحك. وبحضور الداخل في الخارج نشأت بلاغة تقاطبات الأمكنة والأزمنة في شهادة الذات المهاجرة، وتعمق معنى الإنسان والوطن، وتغيرت الرؤية إلى الحياة والموت، الحقيقة والمجاز، الهوية والغيرية، الغربة والاغتراب، العيش والتعايش، الثقافة والبربرية، الحضور والغياب، الحنين والفقد.

لدعم هذا المستوى السيكولوجي، واجتراح تلوينات لبلاغة الألم، لجأت نصوص الهجرة السرية إلى **شَعْرنة** خطابها، وكذا إلى **أسلبته** عن طريق استثمار صيغ بعض النصوص كخطبة طارق بن زياد الشهيرة، وتوظيف الغْرافيتي، والأفلام الوثائقية، وغيرها من النصوص السمعية – البصرية. كما لجأت تلك النصوص إلى **سَيْرَنة** المحكي من أجل إعادة طرح سؤال الكينونة ومعنى الوجود الملتبس، بشكل حميمي طازج.

وعبر تنشيط الذاكرة الكسيرة تم استدعاء الوطن إلى محكمة المقارنات، ووُظِّفت اللغة الأدبية وسائل فنية للإدانة والبوح بالرهانات المعتقَلَة، والآمال الكابية، والأوعاء الحضارية المشروخة، فتأكد للذات المحمومة بالأشواق سراب السعادة المنتظرة، وتقلُّب الآمال إلى آلام حزينة. وما أضافه هذا النمط

من السرد المتصل بالهجرة هو رصده المحايث لأصداء ذوات جريحة ممزقة بين الهنا والهناك. وقد تكون صيغه الفنية والإبداعية سائرة في ركاب السرد المغربي عموماً، لا تخرج عن مجرى تجديداته المتنوعة.

على سبيل الخاتمة

كان وراء الهجرة السرية، باعتبارها فعلاً رحلياً قسرياً، حافز أساسي لعب دوره كعِلّة للتحرك باتجاه ضفة بلا ضفاف، ذاك هو غياب التناغم الأونطولوجي بين ما تطمح إليه شخصية المهاجر السري - والمهاجر عموماً - وبين ما يتيحه واقعه من إمكانات قاصرة عن تلبية مطامحه. لكن المطامح لم تخطِئها أطياف إكراهات برانية وجوانية، جعلت المهاجر يقع نهب تمزق مؤثر بين المنفتحِ والمنغلق، آفاقٍ بلا حدود وحدودٍ بلا آفاق، متناهٍ طافح بالهشاشة والشرور واللاتناسب والمحدودية، ولا متناهٍ من الاستيهامات والأحلام الفردوسية اللامحدودة. وهذا التوزع الأونطولوجي بين المحدود (الهنا) واللامحدود (الهناك) هو الذي أفرز آلام اللاتناغم الأونطولوجي، لعدم تناسب الذات مع كينونتها في الآن والهنا.

وإذا تأملنا فينومينولوجيا الروح المهاجرة (أو المهجَّرة)، من خلال النصوص السابقة، تنبّهْنا إلى أننا أمام جيل مسحور توقف عنده زمن الذات في أبدية لا تتغير تلِد الموت والزمن الضائع، ليُفتَتَن بزمن الآخر المتبدِّل الحركي انتصاراً لحلم حياة أفضل. وقد ولّد هذا التقاطب الدرامي بين زمن الداخل وزمن الخارج عمىً يوطوبيا أجهز على البقية الباقية من احتمال رؤية الذات في واقعها الآني، ولم يبقَ لكينونتها إلا أن تتجسد بالسير الحثيث نحو الموت، وعمى البصر والبصيرة.

وسواء في المغرب أو في إسبانيا اقترنت غواية الهجرة السرية برؤية فردوسية، لا تخلو من سرابية وطوباوية. وهي كتجربة وجودية لجسد وروح ينشدان آفاقاً رحيبة يُتوقع أن تكون رحيمة، استغرقتها ألوان من التعسفات والتعنيفات القسرية الجسدية والروحية، جعلت الكتابة عن الخارج كتابة عن

الدواخل، وضرباً من الاستبطان للامتوقع، حيث أضحت الذات المهاجرة محط تجريم وتضييق وتعقّب وتهميش.

إن سرود الهجرة السرية، سواء في نموذجها المغربي (من روايات وقصص ويوميات...) أم الإسباني (من مذكرات وأخبار وشهادات واعتافات وقصائد باسكية وتقارير صحفية...)، تصوير لظروف قاسية تنتهي بالموت في كثير من الأحيان. وهذه السرود جميعها تلتقي في التقاط لحظات المعاناة والألم سواء في الفضاء المنطلق (أو البلد الأصلي) أم في لحظات التأهب، أم في ظروف العبور، أم في ملابسات الاستقبال والإقامة المهينة. وكل هذه الكتابات تعبير عن وضع سيكولوجي وثقافي منذور للعزلة واللااندماج. تلك، بإجمال شديد، ثوابت الهجرة السرية لدى المغاربة وجيرانهم الإسبان على حد سواء.. وهي – في عمومها – مدوّنة لمرثية الإنسان.

الهوامش والمراجع

(1) انظر إلى ما سيرد تباعاً من نصوص أدبية.

(2) الشعبي، إبراهيم والأشهب، سعاد: **هم أيضاً "يحركون"**، تقديم: مصطفى الشطبي، مطبعة أمبريال، ط1، يونيو 2004 (دون ذكر مكان الطبع)، ص37.

(3) انظر جدول توزيع المهاجرين الأوروبيين إلى أمريكا ما بين 1870 و1900م، ضمن: هم أيضاً "يحركون"، مرجع سابق، ص38. انظر أيضا: إحدوثن، أحمد: المغرب وإسبانيا: الهجرة والتعليم والتربية، **منشورات سلسلة شراع**، ع47، 15 يناير 1999، الذي يقول: "ما بين 1815–1950 غادر أكثر من 50 مليون أوروبي بلادهم إلى خارجها"، ص27.

(4) المغرب وإسبانيا: الهجرة والتعليم والتربية، ص46.

(5) ضمن دراسة لبيرنابي Bernabe, I.G حول "الهجرة المغاربية إلى إسبانيا" عنْون جدولاً إحصائياً للمهاجرين الإسبان إلى الجزائر بـ"حركة المسافرين إلى الجزائر" وليس المهاجرين، وهي تسمية خجولة ترد كثيراً في التقارير الرسمية الإسبانية حول الهجرة.: المغرب وإسبانيا: الهجرة والتعليم والتربية، ص30.

(6) في هذا الصدد نسوق اعتراف حكومة جزر الكناري بأنهم هم أيضاً كانوا أجانب: "Nosotros también fuimos extranjeros"، انظر: هم أيضاً "يحركون"، ص11.

(7) انظر جدول توزيع المهاجرين الإسبانيين بأوروبا، هم أيضاً "يحركون"، ص84.

(8) هم أيضاً "يحركون"، ص61–62.

(9) انظرجدول توزيع العمال الإسبان المقيمين بأوروبا، هم أيضاً "يحركون"، ص67.

(10) هم أيضاً "يحركون"، ص53.

(11) مثلاً تجاوز المهاجرون الإسبان في الجزائر في بداية القرن العشرين نسبة المهاجرين الإسبان في فرنسا الأم. دون أن ننسى أن الهجرة الإسبانية إلى الجزائر بدأت منذ القرن السادس عشر وامتدت طوال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر: الرجال في الفلاحة والنساء خادمات في المنازل. هم أيضاً "يحركون"، ص86 – 87– 88.

(12) وفي المغرب هاجروا إلى مدن طنجة والعرائش والرباط وآسفي والجديدة والصويرة.

(13) نيني، رشيد: **يوميات مهاجر سري**، الرباط: منشورات عكاظ، ط2، 2005، ص4.

(14) هم أيضاً "يحركون"، ص85.

(15) التاريخ العام للهجرة الإسبانية إلى أمريكا اللاتينية، دراسة بالإسبانية، 1992، نقلاً عن: هم أيضاً "يحركون"، ، ص46.

(16) أسفرت الدراسات السوسيولوجية المهتمة بالخصائص الإنسانية للهجرة عن وقوع الإسبان بين مطرقة "قسوة الفرنسيين" وسندان "أنانية السويسريين". انظر: هم أيضاً "يحركون"، ص90–91–92.

(17) هم أيضاً "يحركون"، ص29.

(18) هم أيضاً "يحركون"، ص24.

(19) الشعب الإسباني في فرنسا، دراسة بالفرنسية، نقلاً عن: هم أيضاً "يحركون"، ص72.

(20) هم أيضاً "يحركون"، ص15.

(21) التاريخ العام للهجرة الإسبانية إلى أمريكا اللاتينية، دراسة بالإسبانية، نقلاً عن: هم أيضاً "يحركون"، ص49.

(22) هم أيضاً "يحركون"، انظر هامش 38، ص110.

(23) هم أيضاً "يحركون"، ص22.

(24) هم أيضاً "يحركون"، ص23.

(25) هم أيضاً "يحركون"، ص16.

(26) هم أيضاً "يحركون"، ص17.

(27) هم أيضاً "يحركون"، ص14.

(28) هم أيضاً "يحركون"، ص31.

(29) هم أيضاً "يحركون"، ص11.

(30) البَابِس 1949، نقلاً عن: هم أيضاً "يحركون"، ص12 – 13.

(31) Llorca Baus Carlos: Los Barcos de la emigración, 1880-1950 نقلاً عن: هم أيضاً "يحركون"، ص22.

(32) هم أيضاً "يحركون"، ص30.

(33) هم أيضاً "يحركون"، ص13.

(34) هم أيضاً "يحركون"، ص12.

(35) هم أيضاً "يحركون"، ص36.

(36) التاريخ العام للهجرة الإسبانية إلى أمريكا اللاتينية، دراسة بالإسبانية، نقلاً عن: هم أيضاً "يحركون"، ص47 – 48.

(37) هم أيضاً "يحركون"، ص48.

(38) المهاجرون، دراسة بالإسبانية سنة 1974، نقلاً عن: هم أيضاً "يحركون"، ص 97.

(39) هم أيضاً "يحركون"، ص97.

(40) هم أيضاً "يحركون"، ص85.

(41) هم أيضاً "يحركون"، ص105.

(42) المغرب وإسبانيا: الهجرة والتعليم والتربية، ص36 – 37.

(43) المغرب وإسبانيا: الهجرة والتعليم والتربية، من ص38 إلى ص40.

(44) المغرب وإسبانيا: الهجرة والتعليم والتربية، ص40.

(45) المغرب وإسبانيا: الهجرة والتعليم والتربية، ص25.

(46) في الأربعينيات والخمسينيات من القرن العشرين شكلت الهجرة الإسبانية إلى شمال المغرب 41 بالمائة من مجموع اليد العاملة الإسبانية وإلى الجزائر 35 بالمائة؛ المغرب وإسبانيا: الهجرة والتعليم والتربية، ص26.

(47) المغرب وإسبانيا: الهجرة والتعليم والتربية، ص46.

(48) مكامان، محمد: "الرحلات المغربية في القرنين 11هـ و12هـ"، "رسالة د.د.ع بكلية الآداب والعلوم الإنسانية" الرباط: 1986، ص 25.

(49) - Windus, J: A Journey to Mequinez.., London: printed for Jacob Tomson in the strand, 1725. P.P 156-157.

(50) إليخيدو قرية صغيرة شرق الأندلس، قام سكانها بمهاجمة المهاجرين المغاربة ونهب بيوتهم في فبراير 2000م. وقد سبق أن تحدث خوصي شاميثو محامي الشعب في أندلوسيا عن ظروف معيشة المغاربة في إليخيدو التي لم تتحسن. انظر: أكَمير، عبد الواحد: **الهجرة إلى الموت: إسبانيا وأحداث إليخيدو**، تقديم محمد العربي المساري، منشورات الزمن، الكتاب 28، الدار البيضاء: مطبعة النجاح الجديدة، 2001، ص6.

كما نبهت جريدة إلبَايِس في 22/ 12/ 1997 إلى "الاستغلال البشع لليد العاملة المستوردة". الهجرة إلى الموت: إسبانيا وأحداث إليخيدو، ص6.

وفي هذا الصدد تقول السيدة بيلار أرينيو المتخصصة في المرأة المغربية المهاجرة في إسبانيا:

"العالم ما زال مملوءاً بالنخاسين"، : الهجرة إلى الموت: إسبانيا وأحداث إليخيدو، ص149.

كما فضحت رئيسة إحدى المنظمات غير الحكومية استغلال من يوجد في وضعية غير قانونية: "إن السلبية التي تتعامل بها مفتشية الشغل مع هؤلاء المستغلين هو شيء يثير الانتباه. . . .فعندما يتعلق الأمر بالمغاربة فالمسؤولون يغضون الطرف." الهجرة إلى الموت: إسبانيا وأحداث إليخيدو، ص30.

فالمغربي يتقاضى نصف أجر الإسباني، علاوة على الحرمان من الحقوق المدنية الأساسية. الهجرة إلى الموت: إسبانيا وأحداث إليخيدو، ص30.

وبدوره تحدث المفكر خوان غويتيصولو عن "الوضع الصعب الذي يعيشه المهاجرون في إسبانيا". الهجرة إلى الموت: إسبانيا وأحداث إليخيدو، ص7.

وكلها شهادات قوية على صعوبة التعايش وعسر الوئام التام، وتعقد العلاقة البشرية الإسبانية – المغربية.

(51) هذه المنمطات والمسبقات تمليها قناعات تكذبها الوقائع والإحصاءات. فقد ذكر الخبير في العلاقات المغربية الإسبانية وزير الاتصال الأسبق محمد العربي المساري أن: "الرأي السائد هناك هو أن المغاربة هم أكبر جالية أجنبية في إسبانيا، بينما الأرقام تقول إن أكبر جالية أجنبية هي المكونة من أفراد قدموا من أقطار أوروبية" وبحسب أرقام مركز البحوث الاجتماعية (CIS) يرفض الإسبانيونَ المغاربةَ بنسبة أعلى من رفضهم للأفارقة، وأعلى من باقي العرب. انظر: الهجرة إلى الموت: إسبانيا وأحداث إليخيدو، ص86.

وفي أيامنا هذه كشف خوان غويتيصولو عن أطروحة "النفاق الرسمي" في قوله: "إن الأحزاب السياسية ليست أكثر من أقنعة تختفي من ورائها الطبقة المستغلة والتي لا تريد أن تتواجه مع المشاكل المتولدة عن هذا الاستغلال"، الهجرة إلى الموت: إسبانيا وأحداث إليخيدو، ص19.

(52) الهجرة إلى الموت: إسبانيا وأحداث إليخيدو، ص23.

(53) الهجرة إلى الموت: إسبانيا وأحداث إليخيدو، ص23.

(54) يوميات مهاجر سري، ص 28–29.

على مستوى التداول لا تزال هذه الثنائية حاضرة: "ميرتشي يروق لها أن تنادي مجموعتنا بموروس وكريستيانوس"، ص35.

(55) الهجرة إلى الموت: إسبانيا وأحداث إليخيدو، ص132.

(56) الهجرة إلى الموت: إسبانيا وأحداث إليخيدو، ص134.

(57) الهجرة إلى الموت: إسبانيا وأحداث إليخيدو، ص106.

(58) الهجرة إلى الموت: إسبانيا وأحداث إليخيدو، ص106.

(59) الهجرة إلى الموت: إسبانيا وأحداث إليخيدو، ص106–107.

(60) الهجرة إلى الموت: إسبانيا وأحداث إليخيدو، ص107.

(61) الهجرة إلى الموت: إسبانيا وأحداث إليخيدو، ص107. حاولنا تعميق دراسة صورة المغرب في رحلات الإسبان بنوع من التفصيل في كتابنا: المغرب وأوروبا. نظرات متقاطعة، فاس: منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بأكَادير، مطبعة أنفو برّانت، ط2، 2007.

(62) ذاكر، عبد النبي: "المغرب وأوروبا. نظرات متقاطعة"، **منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية** بأكَادير، فاس: مطبعة أنفو برّانت، ط2، 2007، ص120.

(63) يوميات مهاجر سري، ص8.

انظر قصة تخويف الأطفال بالمورو، أي بالمغربي كما حكاها محمد العربي المساري، الهجرة إلى الموت: إسبانيا وأحداث إليخيدو، ص9 – 10.

(64) الهجرة إلى الموت: إسبانيا وأحداث إليخيدو، ص96.

(65) الهجرة إلى الموت: إسبانيا وأحداث إليخيدو، ص11 – 12.

(66) الهجرة إلى الموت: إسبانيا وأحداث إليخيدو، ص23.

(67) الهجرة إلى الموت: إسبانيا وأحداث إليخيدو، ص111–112.

(68) الهجرة إلى الموت: إسبانيا وأحداث إليخيدو، ص 112.

(69) الهجرة إلى الموت: إسبانيا وأحداث إليخيدو، ص50.

(70) الهجرة إلى الموت: إسبانيا وأحداث إليخيدو، ص61.

(71) الهجرة إلى الموت: إسبانيا وأحداث إليخيدو، ص75.

(72) الهجرة إلى الموت: إسبانيا وأحداث إليخيدو، ص71.

في رواية بينبين الماحي رصد لطرق شتم المهاجر منها: "الزنجي القذِر!"، "العربي القذِر!".

(73) يوميات مهاجر سري، ص74.

(74) يوميات مهاجر سري، ص90.

(75) يوميات مهاجر سري، ص162.

(76) يوميات مهاجر سري، ص51.

(77) يوميات مهاجر سري، ص3–4.

(78) يوميات مهاجر سري، ص139.

(79) يوميات مهاجر سري، ص153.

(80) يوميات مهاجر سري، ص163.

(81) يوميات مهاجر سري، ص164.

(82) يوميات مهاجر سري، ص32.

(83) يوميات مهاجر سري، ص27.

(84) يوميات مهاجر سري، ص22.

(85) يوميات مهاجر سري، ص58.

(86) يوميات مهاجر سري، ص60.

(87) يوميات مهاجر سري، ص63.

(88) يوميات مهاجر سري، ص68.

(89) يوميات مهاجر سري، ص41.

(90) يوميات مهاجر سري، ص42

(91) يوميات مهاجر سري، ص168.

(92) يوميات مهاجر سري، ص168.

(93) يوميات مهاجر سري، ص161–162.

(94) يوميات مهاجر سري، ص169–170.

(95) يوميات مهاجر سري، ص52.

(96) يوميات مهاجر سري، ص81.

(97) يوميات مهاجر سري، ص95.

(98) يوميات مهاجر سري، ص112.

(99) يوميات مهاجر سري، ص127.

(100) يوميات مهاجر سري، ص136.

(101) يوميات مهاجر سري، ص123.

(102) يوميات مهاجر سري، ص170.

(103) يوميات مهاجر سري، ص171.

(104) يوميات مهاجر سري، ص47.

(105) يوميات مهاجر سري، ص52.

(106) يوميات مهاجر سري، ص3.

(107) يوميات مهاجر سري، ص12.

(108) يوميات مهاجر سري، ص13.

(109) يوميات مهاجر سري، ص24.

(110) يوميات مهاجر سري، ص81.

(111) يوميات مهاجر سري، ص20.

(112) يوميات مهاجر سري، ص20.

(113) يوميات مهاجر سري، ص55.

(114) يوميات مهاجر سري، ص44– 45.

(115) يوميات مهاجر سري، ص45 – 46.

(116) يوميات مهاجر سري، ص52.

(117) يوميات مهاجر سري، ص161.

(118) يوميات مهاجر سري، ص63.

(119) - Binebine, Mahi <http://www.bibliomonde.com/pages/fiche-auteur.php3?id_auteur=82> **:Cannibales, Casablanca**: Editions Le Fennec, 2001.p7.

(120) - Cannibales, Casablanca.p18.

(121) - Cannibales, Casablanca.pp61-62.

(122) - Cannibales, Casablanca.p9.

(123) - Cannibales, Casablanca.p19.

(124) - Cannibales, Casablanca.p58.

(125) - Cannibales, Casablanca.p61.

(126) - Cannibales, Casablanca.p7.

(127) - Cannibales, Casablanca.p15.

(128) - Cannibales, Casablanca.p14.

(129) - Cannibales, Casablanca.p8.

(130) - Cannibales, Casablanca.p7.

(131) - Cannibales, Casablanca.pp47-48-49-50-51.

(132) - Cannibales, Casablanca.p52.

(133) - Cannibales, Casablanca.p55. voir: chapitre 7.

(134) - Cannibales, Casablanca.p18.

(135) - Cannibales, Casablanca.p15.

(136) - Cannibales, Casablanca.pp62-63.

(137) - Cannibales, Casablanca.p26.

(138) - Cannibales, Casablanca.pp29-29-30-31-32.

(139) - Cannibales, Casablanca.p44.

(140) - Cannibales, Casablanca.pp8-9.

(141) - Cannibales, Casablanca.p20.

(142) - Cannibales, Casablanca.p20.

(143) - Cannibales, Casablanca.p20.

(144) - Cannibales, Casablanca.p95.

(145) - Cannibales, Casablanca.p143.

(146) - Cannibales, Casablanca.p143.

(147) - Cannibales, Casablanca.p24.

(148) - Binebine, Mahi <http://www.bibliomonde.com/pages/fiche-auteur.php3?id_auteur=82>:Cannibales, Casablanca: Editions Le Fennec, 2001.p60.

(149) العلمي، يوسف أمين: "المهاجرون السريون Les Clandestins "، ترجمة الحبادي، رشيد، إشراف: د.ذاكر، عبد النبي، **بحث بكلية الآداب والعلوم الإنسانية بأكادير**، السنة الجامعية 2004-2005. ص9.

(150) المهاجرون السريون Les Clandestins، ص70.

(151) المهاجرون السريون Les Clandestins، ص17.

(152) المهاجرون السريون Les Clandestins، ص55.

(153) المهاجرون السريون Les Clandestins، ص64.

(154) المهاجرون السريون Les Clandestins، ص56-57.

(155) المهاجرون السريون Les Clandestins، ص62.

(156) المهاجرون السريون Les Clandestins، ص13.

(157) المهاجرون السريون Les Clandestins، ص83.

(158) المهاجرون السريون Les Clandestins، ص85.

(159) المهاجرون السريون Les Clandestins، ص86.

(160) المهاجرون السريون Les Clandestins، ص15.

(161) المهاجرون السريون Les Clandestins، ص19 - 20.

(162) المهاجرون السريون Les Clandestins، ص17 - 18.

(163) المهاجرون السريون Les Clandestins، ص26 - 27.

(164) التازي، محمد عز الدين: **أيها الرائي**، الرباط: دار الأمان، 1990.

(165) المهاجرون السريون Les Clandestins، ص34.

(166) المهاجرون السريون Les Clandestins، ص55.

(167) المهاجرون السريون Les Clandestins، ص36.

(168) المهاجرون السريون Les Clandestins، ص35.

(169) المهاجرون السريون Les Clandestins، ص29.

(170) المهاجرون السريون Les Clandestins، ص47.

(171) المهاجرون السريون Les Clandestins، ص54.

(172) المهاجرون السريون Les Clandestins، ص53.

(173) المهاجرون السريون Les Clandestins، ص24.

(174) انظر النص في الرابط التالي:

- http://www.fdaat.com/art/exec/view.cgi?archive=17&num=2324

❊ ❊ ❊

مجلة فصلية أكاديمية
محكّمة تعنى بنشر البحوث
والدراسات القانونية والشرعية

مجلة الحقوق

تصدر عن مجلس النشر العلمي - جامعة الكويت

رئيس التحرير
الأستاذ الدكتور/ إبراهيم الدسوقي أبو الليل

صدر العدد الأول في
يناير ١٩٧٧

الاشتراكات

	في الكويت	في الدول العربية	في الدول الأجنبية
الأفراد	٣ دنانير	٤ دنانير	١٥ دولاراً
المؤسسات	١٥ ديناراً	١٥ ديناراً	٦٠ دولاراً

المراسلات

توجه جميع المراسلات إلى رئيس التحرير على العنوان الآتي:
مجلة الحقوق - جامعة الكويت ص.ب: ٦٤٩٨٥ الشويخ - ب 70460 الكويت
تلفون: ٤٨٣٥٧٨٩ - ٤٨٤٧٨١٤ فاكس: ٤٨٣١١٤٣
E-mail: jol@kuc01.kuniv.edu.kw

عنوان المجلة في شبكة الإنترنت http://www.pubcouncil.kuniv.edu.kw/jol

ISSN 1029 - 6069